طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــدد 83

01 أيلول 2022

قراءات قومية معاصرة

نحو مشروع للنّهوض القومي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــدد 83

01 أيلول 2022

محتويات العدد 83 من مجلة طلقة تنوير:

الصفحة

- فلسطين بوصلة للنضال ومجال للاستغلال/ كريمة الروبي.....01
- هل ينهض العرب مجدداً؟... رد على نازاروف/ بشار شخاترة.....03
- حول استثنائية الدولار في تكوين الروح الأمريكية: لمحة تاريخية/ إبراهيم علوش.....10
- مرحلة الانتفاضات والمساومات في فلسطين قبل العام 1930/ يحيى العطشان.....18
- عن خواء الطريق الاقتصادوي للوحدة ودور الإسلام الوحدوي/ ياسين الحافظ (1958).....33
- الصفحة الثقافية: عن الشاعر الفارس... ناجي علوش (2) / مريم نصرالله 37
- قصيدة العدد: رسالة إلى شاعرٍ سجين/ محمد عفيفي مطر.....42
- رسم العدد: في ذكرى رحيل جمال عبد الناصر 28/9/1970.....45

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 83 ـــــدد
01 أيلول 2022

فلسطين بوصلة للنضال ومجال للاستغلال

كريمة الروبي

فلسطين هي البوصلة، فمن لم تكن بوصلته فلسطين فلا شرف له ولا كرامة ولا مروءة، وما تزال قضية فلسطين هي القضية الأولى للشعب العربي كله، وهو ما تثبته الأحداث، فعلى الرغم من هرولة الأنظمة العربية نحو التطبيع ومحاولات فرضه على شعوبها، إلا أن فلسطين كانت وما زالت حاضرة وساكنة في وجدان الشعب العربي، لذا فهي عنوان للنضال ، وهو ما يجعلها عرضةً أيضاً للاستغلال، فقد تعامل معها المدّعون واللاهثون خلف صنع رموز وبطولات وهمية كحصان طروادة الذي يتسللون منه لتنصيب أنفسهم مدافعين ومتحدثين باسم القضية لتحقيق مآرب أخرى.

نحن – كقوميين عرب - ندرك جيداً أن الدفاع عن فلسطين هو دفاع عن الوطن العربي كله، فلا يستقيم أن ندافع عن فلسطين وفي نفس الوقت نتآمر على قطر عربي آخر أو نشارك أو حتى نصمت على التآمر عليه، ولا يمكن لمن باع سورية يوماً أن يؤتمن على القضية الفلسطينية... فما بالك بمن باع سورية وليبيا واليمن والعراق ومصر وتقاطع مع العدو في كثير من معاركه.

إن التنظيمات الوطنية الحقة لا تخطئ البوصلة أبداً، ولا يتوجه سلاحها سوى نحو العدو في كل مكان.

وقد عرفت الأمة العربية الكثير من التنظيمات المسلحة التي رفعت راية الجـهاد والنضال ضد الصـهـونية، منها ما جاهدت حق الجـهاد، ومنها ما كانت ترفع فقط الشعارات ولكنها خدمت العدو إما عن قصد أو جهل.

تنظيم (أنصـار بيـت المقدس) الذي يحمل شعار الدفاع عن القدس، ولكنه يوجه سلاحه نحو الجيوش العربية، بايع داعـش وسمى نفسه (ولايـة سيناء).

في المقابل، تنظيم «ثورة مصر»، وهو تنظيم مسلح أسسه محمود نور الدين ضابط المخابرات المصري الذي تقدم باستقالته اعتراضاً على زيارة السادات القدس في 1977 فقام نور الدين بمشاركة خالد عبد الناصر (ابن الزعيم الراحل جمال عبد الناصر) بتأسيس التنظيم الذي أخذ على عاتقه رفض الوجود الصهيوني على أرض مصر مع الالتزام التام بعدم المساس بأي مصري خلال أية عملية حتى لو كان يقوم بحماية العدو، وبعد عدة عمليات ناجحة قام بها التنظيم تم القبض على أعضائه والحكم عليهم بالسجن، وبعد جهود كبيرة وضغط شديد من زعماء الدول الصديقة تم استثناء خالد عبد الناصر من السجن، وفي السجن تمت معاملة نور الدين معاملة سيئة حتى أنه لم يتلق الرعاية الطبية اللازمة ورحل عن عالمنا في 16 سبتمبر/ أيلول 1998 ، أما باقي أعضاء التنظيم فقد قضوا مدة عقوبتهم وخرجوا بعد أن قضوا سنوات شبابهم داخل السجن.

هذا الفارق الكبير بين التنظيمين يبرز طبيعة كل منهما، ويؤكد على أن من يستهدف العدو بسلاحه لا يمكن أن يوجه هذا السلاح ضد وطنه، وإلا فلا حاجة لنا بسلاحه.

أثناء معركة «سـيف القدس» العام الماضي وقفنا مع المـقـاومة، وهللنا لكل صاروخ مـقـاوم بغض النظر عن انتمائه لأي فصيل، حتى من كانوا في الصف المعادي لسورية في أزمتها. وضعنا كل ذلك جانباً حفاظاً على وحدة الصف وعدم الرغبة في المزايدة على من يقفون في جبهات القتال في الوقت الذي ننعم فيه بالأمان في بيوتنا، فرحنا وأيّدنا ونحن نشعر بغصة في القلب حين نهتف باسم قادتهم مع كل صاروخ يسقط في الداخل المحتل.

لا يعني ذلك أننا قررنا فتح صفحة جديدة ونسيان ما قد مضى فما حدث في سورية من حـمـاس لا يمكن تجاوزه، خاصة أن سورية كانت ملجأ المـقـاومة وأمانها، وكذلك ما حاولوه في مصر من دعم لجماعة الأخوان المسلمين كفصيل ينتمون إليه عقائدياً، ولكن المعركة كانت تتطلب وحدة الصف والتفكير بمبدأ (كل ما يؤذي العدو يمثلني)، ولكن سريعاً ما انتهت المعركة وحاولوا جني ثمارها وحدهم على الرغم من أن جميع الفصائل شاركت في تلك المعركة، حتى الداخل المحتل انتفض في سابقة لم يتوقعها أكثر المتفائلين، ولكن فصيلاً واحداً أراد أن يحصل على مكاسب لجماعته.

إن المعركة الأخيرة التي بدأت في الخامس من شهر أغسطس/آب الماضي باستهداف قادة الجـ.هـ.ـاد الإسلامي من قبل العدو الصـ.هـ.ـوني، أظهرت بوضوح الوجه الآخر لفصيل يمكن أن تشاركه في معركة ولكن عليك أن تحذر من أن تدير له ظهرك، فلا أمان له ولا يعير اهتماماً بأية حسابات لا تصب في مصلحته، فقد ترك «الجـ.ـهاد» ليكون لقمة سائغة للعدو يجهز عليه ويقلم أظافره ويتخلص من قادته، ولم يشارك سوى في الدعوة للتهدئة بعد نجاح العدو في التخلص من ثلاثة قادة للجـ.هـ.ـاد الإسلامي.

إن تلك المعركة قد أسقطت صواريخ على منشآت بالداخل المحتل وخلفت جرحى من العدو، ولكنها لم تنل ذلك الحظ من الزخم الإعلامي الذي نالته معركة «سـ.ـيف القدس»، إذ يبدو أن الزخم مرتبط بمن يقود المعركة.

بالتأكيد لا يمكن لعاقل أن يزايد على من يحمل السلاح، فلا صوت يعلو على صوت البارودة، ولا نريد الدخول في معارك وصدامات مع أي فصيل مهما بلغت درجة الاختلاف معه، ولكن وجب التنبيه والحذر والتفرقة بين من يحمل السلاح من أجل التحرير ومن يحمله من أجل مصالح ومكاسب سياسية.

ألف تحية لكل من حمل السلاح دفاعاً عن الأرض... والخزي والعار لكل من تخلى وتخلف.

هل ينهض العرب مجدداً؟... رد على نازاروف

بشار شخاترة

تحت هذا العنوان طرح الكاتب الروسي ألكسندر نازاروف تساؤله في مقال نشرته شبكة «روسيا اليوم» على موقعها بتاريخ 19/8/2022 مجيباً بالنفي، أو على الأقل بنسبة 99% أن الجواب لا، وحتى يكون منصفاً أو منطقياً وموضوعياً في مقالته ترك لنا نحن العرب نسبة 1% لنقلب الجواب إلى نعم، ومن ثم اتبع تبريره للسؤال والجواب معاً في سياق المقال.

ينطلق نازاروف في طرحه للسؤال حول مستقبل العرب من خلفيات دارونية ليست موضع إجماع علمي ابتداءً، في إطار عجز العرب عن التكيف مع الواقع الاقتصادي

والاجتماعي العالمي، عاقداً مقارنةً دارونيةً خرقاء حول فصيلة نادرة من الأسماك التي تكيفت للخروج من البحر إلى اليابسة لكنها لم تفلح في الانتقال إلى مرحلة تالية من التطور نحو الزواحف أو البرمائيات أو الثدييات، ويفسر ذلك بقوله: (فالدرجات الأعلى على سلم التطور قد شغلتها الكائنات الحية الأكثر تكيفاً مع الظروف الجديدة. أي أن الأسماك الأولى لم يكن لها منافسون، ولم يعد لدى المتنافسين الجدد، الأضعف والأقل ذكاء، فرصة للبقاء على قيد الحياة على المستوى الأعلى من التطور، حيث سيلتهمهم أولئك الذين خرجوا أولاً). ومن ثم يسقِط الكاتب هذه الاستنتاجات على العرب واصفاً إياهم بالقول: (حيث يحتل العرب المكانة الأدنى في الهرم الغذائي للبشرية، فليسوا سوى ملحق يوفر المواد الخام للدول الأم أو المراكز الإمبريالية وسوقاً للبيع... ولا توجد فرص للتطوير، لشغل مكان المصنّعين للمنتجات المعقدة ذات الحصة العالية من القيمة المضافة. وبالتالي، ليست هناك فرصة لرفع مستوى المعيشة بشكل كبير أيضاً).

الكاتب نازاروف في سبيل صياغة مقالته حول مكان للعرب - والتي تتسم في فقرات لاحقة من مقاله بالتعالي والازدراء للعرب – حاول أن يستعين بالعلوم الطبيعية واختار علم الأحياء حيث ابتدأ بنظرية التطور الدارونية وربطها بمفهوم السلسلة الغذائية إلى أن وصل إلى تصنيف العرب في أسفل السلسلة الغذائية لعجزهم عن التطور نتيجة لمزاحمة أنواع أخرى (شعوب أرقى كالأوروبيين والأمريكان والروس والصينيين) على سلم التطور، وبالتالي أصبح العرب على الهامش أو ملحقاً، كما وصفنا.

طالما أن الكاتب العتيد لجأ إلى العلوم الحيوية ليصنفنا على الهرمية العالمية، كان لا بد من أن نشير إلى هذه الحجج الخرقاء التي استعان بها من دون فهم أو إدراك لخلفيتها العلمية ولتطبيقاتها في الحقول الاجتماعية والاقتصادية، ليتضح أنه كان يحاول أن يسوق قناعات تتسم بالعنصرية ضد العرب. ففكرة التطور التي يستند إليها ليقنعنا بعجزنا عن التطور نتيجة فقداننا كعرب القدرة على المنافسة، والتي تجد أساسها في نظرية التطور والاصطفاء الطبيعي الدارونية، والتي ما تزال مثار جدلٍ بين العلماء، حيث إنها كنظرية

استندت إلى أدلة من واقع الكائنات الحية وتطورها، إلا أن هذه النظرية بذات الوقت ما زالت تحاول الدفاع في مواجهة تطورات العلم الحديث بحيث بلغت من التعقيد والتبرير مبلغاً بعيداً في محاولة التماشي مع تطور العلم.

ونحن لسنا في سياق مناقشة دارون ونظريته علمياً هنا إلا بالقدر الذي بنى الغرب الأوروبي، وبالنتيجة الإمبريالي لاحقاً، أسطورة تفوقه مستنداً إلى مفاهيم داروين عن الانتخاب والتفوق والانقراض، وهي التطبيقات في حقل الاجتماع الإنساني التي عممتها المركزية الأنجلوسكسونية والغرب عموماً حول فرادة الغرب وتفوقه من أجل تكريس هذا المفهوم في عقول سكان المستعمرات.

ولعل أوضح الأمثلة على ذلك هو الهند التي خضعت للاستعمار الإنجليزي ثلاثة قرون برغم ضخامة عدد سكانها واتساع مساحتها إلا أن القوة العسكرية لم تكن الأداة البريطانية الوحيدة في استمرار الاستعمار والهيمنة على الهند، ولكن تكريس الشعور بالدونية والتأخر لدى الهندي مقابل الإنسان المتطور الإنجليزي سهّل الاستعمار وأطال في عمره، وذات الفكرة ما تزال في عقل الإنسان الإفريقي وفي عقل من خضع للاستعمار الأوروبي عموماً، وذلك في معرض إقناع سكان المستعمرات، بذريعة العلم، ومن باب نظرية التطور والانتخاب.

سوق الاستعمار إذاً مقولة إن سكان المستعمرات أرقى درجة من مرحلة القرود بالنسبة إلى الشكل، ولكن من حيث التفكير والقدرة على التطور والإنتاج فهم لم يبرحوا مرحلة القردة، ولكن إذا كانت هذه حال من تم استعمارهم مع المستعمرين، فما بال ألكسندر نازاروف يتمثل العنصرية الأوروبية والأنجلوسكسونية التي عرج على ذكرها في مقاله؟ فالأصل أنه يعيش في كنف دولة لم تخضع للاستعمار الأوروبي، وأن الغزوات التي واجهتها روسيا كانت تبوء بالفشل، وعلى رأسها حملة نابليون والغزو النازي الألماني. الحقيقة أن ما نعتنا به ألكسندر نازاروف نحن العرب، من جهة مرحلة التطور والعجز عنه، نتيجة امتلاء مقاعد المتنافسين على المسرح العالمي كما يقول، تظهر أنه يعاني من عقدة الأوروبي الغربي، وعقدة الأمريكي، أو بالأحرى المفهوم الشائع عقدة (الرجل الأبيض)، لأن رمي أمة بأسرها كالعرب بما رماها به نازاروف لا يعكس إلا عقلاً يتمثل مفاهيم الغرب حول ترتيب المجتمعات البشرية والسلالات التي أنتجت النازية والفاشية. وإن كانت هاتان السمتان هما سمات أوروبية غربية وأمريكية أنجلوسكسونية، فإن الفاشية

الإيطالية والنازية الالمانية كانتا أكثر وضوحاً وأصدق تعبيراً عن المكنون الأوروبي الغربي والأنجلوسكسوني في نظرتهم للبشر. ونزيد بالقول إن ما جاء به نازاروف لا يعد من باب التمثل والقناعة بمفاهيم غربية فقط، بل هي عقدة النقص التي عانت منها كثيرٌ من الشعوب في مواجهة الغرب المتغطرس، وبالتالي فإن حكمه علينا يتسم بالتناقض من جهة والاستلاب من جهة أخرى.

أما المنزلة التي صنفنا بها نازاروف في أدنى الهرم الغذائي للبشرية فإنه يظهر مدى السطحية في استعمال مفاهيم العلم وإسقاطاتها على البشر، فسلاسل الغذاء حسب تصنيف علم الاحياء تبتدئ بقاعدة الهرم، والتي تشغلها المنتجات وهي كائنات تنتج الغذاء (وهي النباتات في الغالب الأعم) من مواد غير حية كالضوء والماء والأملاح ومواد عضوية ومادة الكلوروفيل الموجودة في مطبخ العالم الأول وهي أوراق النبات، ويشغل المرتبة التالية في الهرم المستهلكات، وهي مصنفة مستهلكات أولى وثانية وثالثة، ويعتلي قمة الهرم المحللات التي تقتات على الجيف والكائنات الميتة لتعيدها إلى مواد أولية في دورة طبيعية، فإذا أردنا إسقاط هذا المفهوم العلمي على النسق الاجتماعي والاقتصادي الإنساني فإننا سنحتاج إلى شروح ومعطيات وتبريرات حتى يمكن تطبيقها على هذا النسق، أي بمعنى آخر سنحتاج إلى التلفيق، وهذا عين ما قام به نازاروف في مقاله، تماماً كما تم تلفيق نظرية التطور والانتخاب لدى داروين على المجتمعات البشرية ليتم تصنيف البشر على أساس تلفيقي لا علاقة له بعلم الاجتماع ولا بالإنسان، ولا بتاريخ الحضارات على الأرض، ناهيك عن أنه يعكس قصوراً عن فهم الإنسان نفسه والعجز عن إدراك قدرة العقل البشري على قلب المفاهيم في حقل الاجتماع والاقتصاد، وبالنتيجة في مجال التطور، فالتخلف ليس قدراً على فئة من البشر، وإلا لكانت أوروبا غارقة في أوحال القذارة وبراثن الطاعون منذ القرون الوسطى.

كما أن نازاروف، وفي سبيل نصيحته لنا، نحن أصدقاءه العرب، كما وصفنا، قفز عن حقائق الاستعمار التي أصر في متن مقاله أنه ما يزال موجوداً، فتناسى أو تعامى، لا نعلم بالضبط، أن العالم الأول، وهو الأوروبي والأنجلوسكسوني، أقام تفوقه الاقتصادي، واستأثر باقتصاديات الإنتاج ذات القيمة المضافة العالية، على حساب نهب الشعوب وثرواتها، ونشَر الحروب والفتن والقلاقل على مستوى العالم بأسره، وانتهج سياسة التدمير الممنهج لأي بادرة تطور لدى الغير. فلا يمكن أمام هذا النوع من الحرب أن

تنعت هذا الغرب بالمتقدم أو بالناجح أو بالمنافس إلا إذا قبلت سلفاً آلياته الثقافية القائمة على التفوق العرقي والانتخاب الطبيعي وعلى قاعدته الذهبية «دعه يعمل، دعه يمر»، والتي راح يرتد عنها عندما لا تعجبه نتائجها، عندها يصبح من المبرر تدمير العالم ويصبح من المبرر ما تفعله الولايات المتحدة في مواجهة روسيا والصين، وهو ما يقبل به الكاتب ويسلم به، مع بروز شكٍ واضحٍ في مقاله أنه يمكن للصين وروسيا أن تنتصرا في هذه المواجهة.

مرة أخرى نؤكد أن الوعي مستلب لدى نازاروف وهو يسدي لنا النصائح، وأنه يعيش حالة هيمنة التفوق الغربي والأمريكي على وعيه بما يجعل مروحة الشكوك والثقة لديه، حتى في روسيا التي ينتمي لها، مجالاً للأخذ والرد، بما يسقط كل مقولاته عن الهرم البشري ومكان العرب فيه. كما أنه، وإن كان يشير إلى تضعضع الهيمنة الغربية على العالم، إلا أنه يتغافل عن التشابك الاقتصادي العالمي والذي أفسح المجال للصعود الصيني في المقام الأول. والانزياح الذي يجري فيه الاقتصاد العالمي بعيداً عن المركزية الأوروبية الأمريكية أحد أهم أسبابه ما أشار إليه نازاروف نفسه في مقاله عن المنتجات ذات القيمة المضافة العالية والتي أتاحت المجال لاقتصادات، منها الصيني والهندي والبرازيلي، وحتى الروسي، للصعود فيما يتعلق بمنتجات ذات قيمة مضافة أقل، ولكن سعة السوق خلقت فوائض مالية لديها جنى منها الرأسمال الغربي الإمبريالي أرباحاً طائلة بالمقابل أيضاً، ولكنها أبرزت قوىً جديدةً على السطح لا تمنع من أن تتسع المساحة المتاحة أمام منافسين جدد، ولا يوجد ما يمنع العرب من أن يكونوا ضمن القائمة، وسنعود إلى معالجة هذه النقطة لاحقاً.

إن التشابك الاقتصادي والسياسة الإمبريالية هما ما ساهم بشكلٍ هامٍ في بروز لاعبين جدد في حلبة المنافسة الاقتصادية العالمية، لاعبين بدرجة منافسين محتملين، وأبرزهم الصين، أما روسيا فإنها لاعبٌ مهمٌ ومنافسٌ في حقول الإنتاج التي تملكها، لكنها قد لا تكون منافساً في اقتصاد الإنتاج عالي القيمة المضافة التي ما زالت على سبيل المثال الولايات المتحدة الأمريكية تتصدرها (باستثناء صناعة الأسلحة طبعاً). وقبل أن ننهي النقطة المتعلقة بهرم الغذاء العالمي، لا بد من التوضيح أنه لا يوجد اقتصاد مستقل ومكتفٍ بذاته حتى اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية، فالعالم أصبح منظومة اقتصادية شاملة متكاملة، وخصوصاً بعد أن أزاحت الرأسمالية منافسها التاريخي عن واجهة الصراع

وهي المنظومة الاشتراكية، فلا يكاد يوجد اقتصاد خارج النظام القائم وليس له ارتباط أو اعتماد عليه، وبالتالي فإن ما يقدمه العرب من مواد أولية له أهميته لكن تزداد هذه الأهمية وتنخفض تبعاً للكيفية وللواقع العربي، فإذا كنا أمام دول متفرقة كما هو الحال الآن، فإن القيمة ضئيلة والتأثير أقل، لكن ماذا لو كانت هناك دولة مركزية عربية فلا شك أن الموضوع سيكون مختلفاً تماماً، وهذه نتركها للفقرات القادمة لنناقشها. لكن الوضع العربي ليس صحيحاً أنه في أدنى الهرم لأنه ليس طفيلياً، إذا كان هذا مقصود نازاروف، فالحقيقة أن الدول الطفيلية ستكون وفقاً لهذا الفهم هي الدول الإمبريالية الغربية التي نهبت وما تزال ثروات الأمم، والتي تعمل بشتى الوسائل على تأمين الموارد الأولية الرخيصة لصناعاتها حتى تضمن القيم المضافة العالية، وهنا يحضرنا المثال الروسي في علاقته مع أوروبا في عقود الطاقة (الغاز والنفط الرخيصين) وبأسعار أقل من تلك التي يبيع بها العرب طاقتهم، فكيف سيستقيم هذا مع طروحات نازاروف؟!

كيف تحققت الحالة التي يصنفنا بها نازاروف تاريخياً؟ وكيف استمرت على ذات الوتيرة؟

هذان السؤالان هما جوهر الجواب الذي غفل عنه نازاروف، والذي أجهد نفسه في تأصيل مقالته بالعلم وبالاقتصاد، فحقيقة أن القضية العربية مركبة وشائكة لدرجة يعجز نازاروف عن إدراكها، جعلته يكتفي بإسقاط نظري غير مؤكد علمياً على واقع إنساني اجتماعي غني حضارياً وتاريخياً يمتد عبر عصور مغرقة في القدم يمكن قراءة واقع العرب من خلالها وبشكل منهجي وعلمي أكثر دقة، ومن دون تلفيق، وبما ينفي كل إسقاطات نظريات دارون الاجتماعية-السياسية حول النشوء والارتقاء والانتخاب، وبما يسقط مقارناته بين روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والعرب، لأنها مقارنة غير صحيحة. فروسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عادت إلى الحدود التاريخية للدولة الروسية التي يمثل الروس عمادها القومي، وبقيت بمساحتها الشاسعة دولةً قوميةً موحدةً ولم تتشظَ إلى دول، وإن كانت هناك محاولات حثيثة لذلك، إلا أن روسيا كانت تملك قدراً من القوة تحافظ بها على وحدة إقليمها الجغرافي المترامي الأطراف. بمعنى

أوضح، فإن الدولة القومية المركزية لروسيا كانت قائمة واستمرت، ما وفر لها الفرصة الذهبية للنهوض، وهذا ليس متوفراً للعرب في ظرفهم الراهن. فالعرب مقسمون بين 22 دولة معظمها دكاكين لعائلات نصبتها بريطانيا كعملاء بمرتبة مسماها الوظيفي ملك، وهؤلاء يؤدون أدوارهم ببراعة واقتدار ويتمتعون بحماية أمريكية غربية، وهم سبب رئيسي من أسباب التراجع العربي الراهن، وهذا يصب في الجواب على سؤالنا الذي طرحناه كيف استمرت الحالة التي يصنفنا بها نازاروف.

من جهة ثانية، فان الحالة العربية الراهنة هي نتاج منظومة هيمنة توالت على أمتنا، منها أربعة قرون من الاستعمار العثماني الرجعي والمتخلف، تلاه استعمار أوروبي وهيمنة أوروبية أمريكية لاحقة للاستعمار رتبت الظروف لحالة من السيولة والميوعة في واقع العرب حافظت على التجزئة، وبغياب دولة الأمة القادرة على تعديل الموازين وقلب معادلات القوة لصالحها يستمر هذا الواقع. وهنا يُطرح السؤال: طالما الوضع كذلك إذاً نازاروف على حق؟ ونجيب بالنفي القاطع، وذلك لأن الأمة العربية تخوض صراعاً منذ قرون تارةً أمام التخلف التركي العثماني، والذي يحاول أن يعيد وجوده، وقد كانت هناك محاولة في الثورة العربية على الأتراك لكن مع أشد الأسف كانت قيادتها عميلة ومخترقة لصالح الإنجليز، وتمت إزاحة الأتراك عن الواجهة فجاء الأوروبيون، ما نريد قوله إننا لم نخرج من التاريخ حتى يخرج علينا نازاروف ببيان النعي الذي نشره، وأما بالنسبة للاستعمار الأوروبي فتاريخ الوطن العربي شاهدٌ على منازلتنا له في كل ميدان. فليسأل الجزائر وليبيا ومصر واليمن والعراق وسورية والمغرب، وأما في عالم اليوم، ففلسطين برهاننا على أننا نقاتل من أجل نهضتنا وتحررنا وقوى المقـ ـاومـ ـة في لبنان بين أظهرنا. أما سورية المقاتلة الصابرة فهي رسالتنا ودرسنا لكم يا نازاروف، وروسيا أخبر بذلك، ودرس للغرب كله (و«إسرائيل») وأمريكا أيضاً أخبر بذلك، فمن يقاتل اليوم على أرض العرب مشاريع الهيمنة ليس ملحقاً ويأبى أن يكون، وإذا كان الصديق نازاروف لا يرى من العرب إلا مشيخات وممالك فهؤلاء ليسوا العرب ولا يمثلونهم، هؤلاء عملاء نصبهم أسيادهم على جزء من العرب.

ونزيد السيد نازاروف من الشعر أبياتاً، فالعرب أمة ما سكنت عن طلب نهضتها ورقيها، فيكفي أن نذكر بمشروع محمد علي باشا الذي غدرته القوى الاستعمارية سنداً للدولة

العثمانية، وليعذرنا السيد نازاروف إن ذكرناه أن دولته التي ينتمي لها، روسيا القيصرية، كانت إحدى الدول التي قوضت المشروع الوحدوي العربي الحديث بقيادة مصر محمد علي باشا من أجل مطامعها، ولا يفوتنا التذكير بمشروع عبد الناصر الوحدوي أيضاً، والذي شكل علامةً جديدةً على حيوية الأمة العربية ونزوعها نحو التحرر والنهوض.
إن واقعنا العربي مزرٍ ونعلم ذلك جيداً، ونعلم أيضاً أننا لم نقرر الانتحار بعد، ونعلم أننا أمة تأبى أن تخرج من قواميس الدنيا وأطلسها وتصبح جزءاً من كتب التاريخ، فالحضارة العربية وجدت قبل التاريخ بمسمياتها التي قد يجهلها نازاروف، من سومر إلى أكاد إلى آشور إلى الفنيقيين إلى بني أمية وبني العباس، نحن سلسلة لا تنتهي وامتداد لا ينقطع، ونحن اليوم نعيش في مخاض التحرر القومي، وفيما يبدو أن هذا المصطلح لم يعد معروفاً في روسيا بعد خلع ثوب الشيوعية، وطالما أننا في مرحلة التحرر فنحن نعبد الطريق للتقدم، وخصوصاً إذا ما كانت الدنيا بأسرها تقاتلك، عندها يغدو اللوم إما تكبراً وتعالياً وإما تشفياً، وأهل مكة أدرى بشعابها، فلا تعوزنا الهمة ولا يعوزنا الهدف ولكنها موازين القوة، وأيضاً نقول لكنها الأيام دولٌ فمن سره زمان ساءته أزمان.

حول استثنائية الدولار في تكوين الروح الأمريكية: لمحة تاريخية

إبراهيم علوش

تتوزع النظريات التقليدية في تكوين الأمم إلى مدارس، فمنها ما يركز على أولوية عوامل اللغة والثقافة والتاريخ؛ ومنها ما يركز على أولوية الجغرافيا المشتركة، ومنها ما يركز على العوامل المعنوية عموماً؛ ومنها عنصر الإرادة الذاتية، أي «قرار» أي جماعة من الناس بأنهم أمة؛ ومنها ما يركز، في القرن الواحد والعشرين، على عنصر المصالح المشتركة.

وهي مدارس تنطبق مقاييسها على الأمة العربية، باستثناء مدرسة «الإرادة»، التي تروج لها اتجاهات العولمة وما بعد الحداثة كمشروع تفكيك، بحيث يمكن لكل بضعة أشخاص فوق منجم أو بئر نفط أن يعلنوا أنفسهم «أمة» أو «كياناً سياسياً مستقلاً»، إذا كانت ثمة

حاجة لوجود أممٍ أصلاً في السردية الليبرالية الجديدة.

لكنّ نشوء الأمة الأمريكية، وتعبيرها السياسي-القانوني المتمثل بالولايات المتحدة الأمريكية، كدولة-أمة، وتحولَ تلك الدولة إلى قطبٍ رئيسيٍ عبر القرن العشرين، وإلى قطب أوحد، بين نهايات العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، ما برح يطرح «نمط الحياة الأمريكي»، على غرار ما تروج له «هوليود»، مقياساً ثقافياً عالمياً أعلى، وما برح يبرر مشاريع الهيمنة الأمريكية في العالم بما يسمى «الاستثنائية الأمريكية»، حتى وهو يدخل مرحلة الأفول، يطرح تساؤلاً معرفياً، ذا بعدٍ سياسيٍ راهنٍ، حول كيفية تشكل تلك الأمة ودولتها القومية، وحول ما جعلها ما هي عليه اليوم من ولعٍ أنانيٍ بذاتها الشوفينية النهمة، ومن عدم اكتراث بارد بكل ما هو «غير أمريكي».

التوسع الإقليمي كمفتاح لفهم «الروح الأمريكية» المعاصرة

نشأت ظاهرة الولايات المتحدة الأمريكية بين القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين، ولم تعلن ألاسكا وهاواي ولايتين أمريكيتين رسمياً حتى عام 1959. وعلى عكس الأمم التي تشكلت تاريخياً عبر آلاف السنين، مثل الصين والفرس والروم والعرب وغيرهم، فإن الأمة الأمريكية ظاهرة حديثة ارتبط تشكلها بالتاريخ الأوروبي الحديث، وبنزعة التوسع الاستعماري الأوروبية. ولذلك، فإن نشوءها وتبلورها، بالمقاييس التاريخية للأمم، اتخذ طابعاً قسرياً وعنيفاً ومداراً مركزياً من قبل الشريحة الحاكمة في شرق الولايات المتحدة الأمريكية. كما أنه ارتبط، منذ البداية، بصعود الظاهرة الرأسمالية، على كتف الثورة الصناعية، حتى انتقل مركز ثقل النظام الرأسمالي العالمي من أوروبا الغربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

نلاحظ هنا عدداً من الظواهر التي ارتبط نشوء الولايات المتحدة الأمريكية بها، وعلى رأسها مركزية الدولار، في الاستحواذ على الأراضي وفي التوسع الإقليمي لما أصبح الولايات المتحدة الأمريكية كما نعرفها اليوم.

عند إعلان الاستقلال الأمريكي عن بريطانيا، عام 1776، في خضم ما يسميه الأمريكيون «الحرب الثورية الأمريكية»، أو «حرب الاستقلال»، من طرف المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة التي أعلنت عن ذاتها «ولايات متحدة أمريكية»، لم تكن تلك الدولة المستقلة حديثاً تسيطر إلا على جزءٍ من شرق ما أصبح لاحقاً الولايات المتحدة الأمريكية، إذ لم يكن لتلك الدولة مخرجٌ على خليج المكسيك، لأن ولاية فلوريدا الأمريكية، وما يجاورها غرباً على ساحل ذلك الخليج، وصولاً إلى كامل ولاية تكساس الحالية، لم يكن جزءاً من الولايات المتحدة الأمريكية، حتى بأقصى مقاييس الأمريكيين الذين خاضوا حرب الاستقلال ضد بريطانيا.

وعند توقيع اتفاق باريس، الذي أنهى حرب الاستقلال الأمريكية رسمياً عام 1783، والتي كانت قد بدأت عام 1775، كانت السيطرة البريطانية قد انحصرت في كندا، وكانت إسبانيا تسيطر على معظم ما يعرف اليوم باسم الولايات المتحدة الأمريكية، ومنه ما يعرف باسم «منطقة لويزيانا»، الممتدة قطرياً من أواسط كندا حتى خليج المكسيك، والتي كانت سابقاً بأيدي الفرنسيين، حتى خسروها عام 1763.

ونلاحظ في الخريطة المرافقة أن القسم الأزرق الغامق، عند الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية من قبل بريطانيا وفرنسا وإسبانيا في اتفاقيات باريس، هو وحده ما كان يعد أمريكياً، وأن القسم الزيتي، هو القسم البريطاني المنحصر معظمه فيما بات يعرف بكندا، وأن القسم البني، ومنه ولاية فلوريدا، هو القسم الإسباني، وكانت ولاية فيرمونت دولة مستقلة حتى ذلك الوقت.

لم يعد لفرنسا سلطة رسمية في أمريكا الشمالية بعد حرب السنوات السبع التي انتهت عام 1763، وتوزعت أملاكها بريطانيا وإسبانيا، ولكن مع صعود نابليون بونابرت في نهاية القرن التاسع عشر، سعت فرنسا لاستعادة ممتلكاتها في أمريكا الشمالية، وقد استعادها نابليون عام 1800، بعد تنازل إسبانيا عنها له سراً. ولكنه، في تلك اللحظة، لم يرغب في خوض معركة كبرى على الجبهة الأمريكية مع بريطانيا وحلفائها، في وقتٍ كان يخوض فيه معارك دموية في المسرح الأوروبي والمتوسطي، فباع «منطقة لويزيانا» إلى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية عام 1803 مقابل 15 مليون دولار أمريكي فحسب.

نتحدث هنا عن 2.14 مليون كم مربع تمثل المنطقة الوسطى من الولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي مكن الولايات المتحدة من مضاعفة مساحتها تقريباً بضربة واحدة، بقوة الدولار. ويقدر ذلك المبلغ، بمقاييس اليوم، بـ393 مليون دولار أمريكي. ويرى باحثون آخرون أن تكاليف الاستحواذ الأمريكي على «فرنسا الجديدة»، أي ما يعرف باسم «منطقة لويزيانا»، بلغت 2.6 مليار دولار بالمجمل بمقاييس اليوم، وهو مبلغ تافه مقابل مساحة 15 ولاية أمريكية، جزئياً أو كلياً، وأجزاء صغيرة من ولايتي ألبرتا وساكاتشيوان الكنديتين، بضربة واحدة، فضلاً عن إيجاد منفذ إلى خليج المكسيك في الجنوب.

وكان التواجد السكاني الفرنسي محدوداً جداً عبر تلك المنطقة، باستثناء أورليان الجديدة. وكان عدد المقيمين غير الأصليين، أي ما عدا سكان القارة الأصليين، الذين يسمون زوراً

«الهنود الحمر»، في منطقة لويزيانا، عند بيعها للحكومة الأمريكية، 60 ألفاً فحسب، نصفهم من العبيد المخطوفين من إفريقيا. فالاتفاق بين الحكومتين الفرنسية والأمريكية فعلياً كان هنا على «الحق» الأمريكي في منع القوى الأوروبية الأخرى من وضع موطئ قدم في أراضي السكان الأصليين في الجزء الأوسط مما أصبح الولايات المتحدة الأمريكية.

تجربة الاستحواذ على ألاسكا بالدولار

يتشكل وعي الشعوب وإرثها التاريخي من تجارب مثل تجربة مضاعفة مساحة الولايات المتحدة الأمريكية بـ15 مليون دولار فحسب. وما من شكٍ في أن فكرة «الضربة السريعة»، والاستيلاء على مثل هذه المساحة من الأرض بحفنة من المال، بما يشبه لعبة القمار، أسهم في تشكيل الوعي القومي الأمريكي كـ«وعي» نفعي يقرأ كل قيمة سامية، مثل أرض سكان القارة الأصليين، كقيمة تبادلية يمكن شراؤها بالدولار، أو أخذها بالعنف.

وهكذا، في عام 1810، دخلت القوات الأمريكية إلى غرب ولاية فلوريدا الأمريكية بالقوة معلنة أنها جزءٌ من صفقة شراء «منطقة لويزيانا»، إذ عدت فلوريدا الإسبانية كلها «على ظهر البيعة» في تلك الصفقة. وفي عام 1821، استكملت الحكومة الأمريكية سيطرتها على شرق فلوريدا، واعترفت إسبانيا بالسيادة الأمريكية عليها.

لم يكن شراء كل أو أجزاء مما أصبح خمس عشرة ولاية في القلب الأمريكي من فرنسا خاتمة المطاف في تكوين الولايات المتحدة الأمريكية. ففي عام 1867، جرى شراء منطقة ألاسكا من روسيا القيصرية مقابل 7.2 مليون دولار أمريكي. والصورة المرافقة للشيك الذي دفعته الحكومة الأمريكية للقيصر الروسي لقاء ألاسكا.

نتحدث هنا عن أكثر من 1.5 مليون كم مربع مقابل ما يعادل نحو 144 مليون دولار اليوم. ويشار إلى أن قيمة الناتج الإجمالي لألاسكا بلغ أكثر من 50 مليار دولار أمريكي في عام 2021 وحده. فيا لخيبة القيصر الروسي ألكسندر الثاني الذي باع ألاسكا! ويذكر أن الذهب اكتشف فيها في نهاية القرن التاسع عشر، والنفط والغاز في القرن العشرين، وأنها من أهم مصادر الثروة السمكية في العالم، ناهيك عن كونها قبلةً سياحية رائجة.

نركز هنا على التوسع الإقليمي بقوة الدولار، وبقيم بخسة، مقابل الأرض التي جرى الاستحواذ عليها، لأن كثيرين سبق أن كتبوا في تاريخ العنف الذي مارسه المستعمرون المستوطنون الأوروبيون في القارة الأمريكية ضد: أ – السكان الأصليين، ب – الأفارقة

الذين اختطفوا واستعبدوا من قارتهم، ج – شعوب أمريكا اللاتينية خصوصاً، وشعوب الأرض عموماً، الذين تعرضوا للتدخلات والحروب الأمريكية منذ نشأت.

نركز هنا، إذاً، على دور الدولار كأداة للتوسع الإقليمي، وفي تشكيل الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، في الوعي القومي الأمريكي، لا كأداة للسياسة الخارجية فحسب. وهو دورٌ من البديهي أن يشكل خلفيةً تاريخيةً لاستراتيجية تحويل الدولار إلى أداة هيمنة مالية دولية في المعادلات التي حكمت الاقتصاد العالمي بعد اتفاقية بريتون وودز عام 1944.

وفي عام 1917، اشترت حكومة الولايات المتحدة أرخبيل الجزر العذراء Virgin Islands- في البحر الكاريبي، من حكومة الدنمارك، التي كانت قد حكمتها منذ عام 1754، مقابل 25 مليون دولار أمريكي فحسب. وهي تبلغ 553 مليون دولار اليوم. وقد أصبحت تلك الجزر، كما هو معروف، ملاذاً ضريبياً وملجأً لغسيل الأموال وأحد أشهر مواقع شركات الـ Off-shore، أي الشركات المسجلة خارج بلادها، في العالم، من دون أن تصبح ولاية أمريكية أو حتى مقاطعة في أي ولاية أمريكية. وتبلغ المساحة البرية للجزر العذراء، وهي بالعشرات، بضع مئات من الكيلومترات المربعة فحسب.

(من هنا لا نتفاجأ من منطق «الحلول الاقتصادية» للقضية الفلسطينية مثل «تعويض اللاجئين»، و«تخفيف القيود على غزة والضفة»، و«تحسين حالة العرب الفلسطينيين في الأرض المحتلة عام 48»، كمواطني درجة عاشرة، مقابل تخليهم عن حقهم في أرض فلسطين).

غزو ودولار للاستحواذ على شمال المكسيك

بالعودة قليلاً إلى الوراء في القرن التاسع عشر، قبل الاستحواذ على ألاسكا، ثمة قصة كبيرة تتعلق بالسيطرة على أهم ولايتين اقتصادياً في الولايات المتحدة الأمريكية: تكساس وكاليفورنيا، اللتين كانتا، مع كل الشمال الغربي، أي ولايات مثل واشنطن وأريغون وغيرها، خارج إطار الدولة الأمريكية. ويذكر أن الناتج الإجمالي لولاية كاليفورنيا عام 2021 بلغ أكثر من 3.3 تريليون دولار، وبلغ نحو 2 تريليون في تكساس، مقارنةً بـ 1.85 تريليون في ولاية نيويورك، و1.2 في ولاية فلوريدا، في العام ذاته.

ما حدث هو أن ولاية تكساس أعلنت استقلالها عن المكسيك عام 1836، وأن حكومة الولايات المتحدة ضمتها إليها عام 1845 بالتواطؤ مع حكومتها. اشتعلت إثر ذلك حربٌ بين المكسيك والولايات المتحدة استمرت ثلاث سنوات ونيفاً انتهت بضم كل شمال المكسيك إلى الولايات المتحدة، وكان يضم كل المنطقة الواقعة بين ولايتي تكساس وكاليفورنيا الحاليتين، أي كل الجنوب الغرب للولايات المتحدة الحالية.

كانت هزيمة المكسيك قاسية، إذ انتهت بآلاف القتلى وبإفلاس الدولة. وفي النهاية، اعترفت المكسيك بسيادة الحكومة الأمريكية على كل الأراضي التي احتلتها، ما عدا «جمهورية تكساس» الانفصالية. بالمقابل، دفعت الحكومة الأمريكية للمكسيك 15 مليون دولار كـ«تعويضات حرب»، أي ليس مقابل الأراضي التي احتلتها، زائد 3.25 مليون دولار كانت قد اقترضتها الحكومة المكسيكية من مواطنين أمريكيين، أي أن الحكومة الأمريكية سددت ذلك المبلغ لبنوك وأثرياء أمريكيين مقابل سكوت المكسيك عن فقدان كل أراضيها الشمالية فعلياً، ولكن ليس «تكساس»، اسمياً!

تبلغ القوة الشرائية للـ18.25 مليون دولار أمريكي التي دفعتها الحكومة الأمريكية مقابل الجنوب الغربي للولايات المتحدة، والتي تضم ولايات تكساس ونيو مكسيكو وأريزونا وكاليفورنيا ويوتاه ونيفادا وأجزاء من كولورادو، ونتحدث عن نحو 1.37 مليون كم مربع هنا، أكثر قليلاً من 700 مليون دولار عام 2022.

وبقي خلاف حدودي صغير، بين المكسيك والحدود الجنوبية الجديدة للولايات المتحدة الأمريكية، يتعلق بجنوبي ولايتي نيو مكسيكو وأريزونا، وفيه مدن مثل توسون ويوما وسييرا فيستا جنوبي أريزونا، فدفعت الحكومة الأمريكية 10 مليون دولار أمريكي عام 1854 للحصول على نحو 77 كم مربعاً إضافياً فقط من المكسيك، وهو ما يبلغ نحو 370 مليون دولار أمريكي عام 2022، والعقد شريعة المتعاقدين، وما الأوطان عند أولئك المتعاقدين إلا قيمٌ مالية خاضعة للتفاوض، فإذا كان البائع رخيصاً أصلاً، كيف نلومه على بيع ما لا يقوم بالمال بثمنٍ بخس؟!

في الفترة ذاتها، أي نحو عام 1845 وما تلاه، جرى ضم ولايات الشمال الغربي مثل واشنطن وأريغون والأجزاء الخارجية من مونتانا وأيداهو ووايومينغ. ولا قصة بيع هنا، إنما حرب وقعت عام 1812، سميت «حرب الاستقلال الثانية»، كانت تطمع فيها الحكومة الأمريكية بالسيطرة على كندا، وفي طرد بريطانيا من كل أمريكا الشمالية، ولم توفق بذلك، ولكن الحرب أسفرت عن وضع خط فاصل ما بين كندا والولايات المتحدة في الغرب، هو خط عرض 49، وتنازلت الولايات المتحدة بذلك عن الأجزاء الكندية من «منطقة لويزيانا» لبريطانيا، وتنازلت بريطانيا فعلياً عن شمال غرب الولايات المتحدة، بالرغم من الحديث عن حقوق مشتركة للطرفين فيها في المرحلة الأولى. فازداد الاستيطان فيها، على حساب السكان الأصليين للقارة الأمريكية طبعاً، حتى كثر عددهم وجرى ضمها رسمياً، ابتداءً من عام 1845، ليتم بذلك استكمال السيطرة على القسم القاري من الولايات المتحدة الأمريكية، أي ما عدا الجزر والمناطق الواقعة في المحيطات. وهي قصة استعمار استيطاني دامية، ولكنها ليست موضوعنا هنا.

حول مفهوم «القدر الواضح» Manifest Destiny

لم تأتِ الإشارة إعلاه إلى سعي الحكومة الأمريكية لضم كندا إلى الولايات المتحدة عبثاً أو عن طريق الخطأ. وقد كان ذلك الهدف أحد أهداف الحرب الثانية الأمريكية-البريطانية عام 1812، والتي استمرت نحو ثلاثة أعوام، وسقط فيها عشرات آلاف القتلى، كان الكثير منهم من القبائل الأمريكية الأصلية، للأسف، التي جندها كل من الطرفين لحسابه. ويذكر أن أغلب تلك القبائل باتت تعمل مع بريطانيا مع استقلال الولايات المتحدة الأمريكية، إذ لعب البريطانيون ورقة سكان الأرض الأصليين بخبثٍ ودراية في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية وسعيها للتوسع، وكان البريطانيون يتخلون عنهم بعدها كلما اقتضى الأمر ذلك، على طاولة المفاوضات، أو بعد الفراغ من استعمالهم ميدانياً (ابحث عن قصة الزعيم «تيه كوم سيه» Tecumseh، قائد قبائل الـ«شاوني»، وكيف فجر أهم ثورة للسكان الأصليين في بداية القرن التاسع عشر ضد الأمريكان).

لكنّ المبدأ الحاكم للتوسع الأنجلو-ساكسوني في أمريكا الشمالي كان عقيدة «القدر الواضح» Manifest Destiny، وهي عقيدة ما برح يتردد صداها في رحاب الثقافة الأمريكية، لأنها ترتبط عضوياً بفكرة «الاستثنائية الأمريكية» American Exceptionalism.

تقوم عقيدة «القدر الواضح»، أو الرسالة الجلية بتعبيرٍ آخر، على تمتع الأمريكيين ومؤسساتهم بخصوصية مزعومة تركتهم، من دون أن يشعروا، مختلفين نوعياً عن بقية شعوب الأرض ودولها ومؤسساتها، وفي أن قدرهم هو التوسع غرباً وفي إعمار الغرب حتى يصبح كالشرق الأمريكي، وفي أن قوة إلهية تدفعهم وترعاهم في مسعاهم لتحقيق ذلك القدر...

لا يسع أي مطلع على المقولات التوراتية إلا أن يرسم خطوطاً متوازية ما بين عقيدة «القدر الواضح» الأمريكية من جهة، وما بين فكرة «شعب الله المختار» (الاستثنائي؟)، وفكرة «أرض الميعاد» (شرقاً أو غرباً)، أي ما بين عقيدة «القدر الواضح» والفكر الصهيوني بالمحصلة، والذي يستند إلى مقولات توراتية بغض النظر عن كل المجهود الذي يبذله البعض، استرضاءً للغرب، للفصل ما بين الصهيونية وجذورها التوراتية.

ولكم أن تبحثوا عن عدد التصريحات التي أطلقها مسؤولون أمريكيون، على مدى عقود، عن القيم الثقافية المشتركة بين الولايات المتحدة الأمريكية والكيان الصهيوني، وستعرفون القصد تماماً، وهي قيمٌ لا تتعلق بالديموقراطية أو الاقتصاد الحر فحسب، بل تتعلق بالغزو والإبادة واستخدام كل الوسائل، وعلى رأسها الدولار والشيكل، لتحقيق «القدر الواضح» المزعوم.

مسألة الحس القومي الأمريكي

لم تحدث عملية التمدد غرباً في الولايات المتحدة عفوياً، أو بدافع أيديولوجي فحسب، بل أشرفت على عمليات الشراء والتوسع الإقليمي شريحة حاكمة في القسم الشرقي من الولايات المتحدة ابتداءً تمكنت بفعل بعدها الجغرافي عن بريطانيا، وبفعل الثروات التي راكمتها، من أن تصبح قطباً إقليمياً ثم دولياً خلال القرن التاسع عشر على خلفية ثورة صناعية في شمالي شرق ووسط الولايات المتحدة دفعتها إلى مقدمة العالم فعلياً، وقد قامت بذلك من خلال سرقة حقوق الملكية الفكرية للمنتجات الأوروبية بالمناسبة.

كانت تلك الشريحة تعرف ماذا تفعل. ففي الوقت الذي تبنت فيه برنامجاً توسعياً يحولها إلى قوة دولية عظمى، رفضت مجرد التفكير بالسماح لأي ولاية تنضم للاتحاد الفيدرالي، أي للولايات المتحدة الأمريكية، بأن تنفصل عنها. ولم يكن لديها مانع بأن تبيد السكان الأصليين للقارة، وبأن تستعبد الأفارقة، وبأن تستغل ثروات القارة الأمريكية البكر، وبأن تسحق في الآن عينه أي حركة انفصالية في المهد مهما بلغ الثمن دموياً.

فكِّر أن الحرب الأهلية الأمريكية اشتعلت بين عامي 1861 و1865 على خلفية استفتاء صوتت فيه ولاياتٌ جنوبية في الولايات المتحدة للانفصال عن البلاد. لكن لا ديموقراطية ولا حرية رأي في موضوع الانفصال. شنت الحكومة المركزية (الفيدرالية؟) حرباً ضروساً على الولايات الجنوبية حتى أخضعتها وأعادتها إلى كنفها بالحديد والدم.

كان عدد سكان الولايات المتحدة 32 مليوناً خلال الحرب الأهلية الأمريكية. وكان ثمن الحفاظ على وحدة البلاد أكثر من 750 ألفاً من المقاتلين على الجانبين، وعدداً غيرَ معروفٍ من المدنيين. ولولا مثل ذلك الإجراء الحاسم من طرف الحكومة المركزية، لتفككت الولايات المتحدة إلى دويلات، ولما أصبحت قوة عظمى. ذلك هو القدر الجلي: الوحدة سر القوة.

وإذا كان دعاة العولمة اليوم، من جورج سورس الذي يمول جمعية غير حكومية تدعو لاستقلال كاليفورنيا، إلى الليبراليين الذين يرون في كل رجل (أو امرأة) أمة، فإن الحقيقة تبقى أن قيام الوحدة والحفاظ عليها كثيراً ما يحتاج إلى الحديد والدم، كما كان يقول بسمارك، وأن التفكيك هو وصفة للضعف والتخلف والتبعية للخارج، كقانون عالمي تاريخي لنشوء الدول القومية وارتقائها.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 83
01 أيلول 2022

مرحلة الانتفاضات والمساومات في فلسطين قبل العام 1930

يحيى العطشان

هذه المادة ملخصة ومنقولة بتصرف من كتاب المناضل ناجي علوش «المقاومة العربية في فلسطين (1917-1948)»، الفصل الثاني تحديداً من الكتاب المعنون "مرحلة المؤتمرات والانتفاضات 1919-1929"، والكتاب مهم جداً لتأريخ المقاومة الفلسطينية لتلك الفترة، ولن تغني هذه المادة عن قراءته بالطبع.

لم يكن النضال العربي الفلسطيني حديثاً ولم يبدأ بعد احتلال فلسطين عام 1948، ولم تكن انتفاضة الحجارة الانتفاضة الأولى في تاريخه، فمنذ الهجرات الأولى إلى فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد، بدأ العرب في فلسطين مقاومة تلك الهجرات والتصدي لها، صحيحٌ أن وعينا كان مفوتاً، وصحيح أن تلك المقاومة لم ترتقِ إلى المستوى المطلوب، بسبب العديد من العوامل أهمها التخلف الذي أبقانا فيه الاحتلال العثماني، ودخول قوى استعمارية حديثة إلى بلادنا لزرع اليهود فيها وفصل المغرب عن المشرق العربي، لكن لم يمر على اليهود يومٌ إلا فهموا فيه، بفعل المقاومة، أنهم لن يعيشوا في أمان على أرض فلسطين.

لمحة: قبل الاحتلال البريطاني

منذ بدأ التحضير للمؤتمر الصهيوني في بال سنة 1897، بدأ شعور العرب يزداد حدة بخطورة الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، ففي السنة ذاتها تباحث متصرف القدس مع القنصل الألماني حول الخطر الصهيوني وضرورة مجابهته، ولا بد أن يكون موقف المتصرف تعبيراً عن مشاعر سكان القدس خاصة وفلسطين عامة، وتبلورت هذه المشاعر لتصبح «موقفاً حازماً ضد المشاريع الصهيونية والهجرة اليهودية، وإمكان قيام «إسرائيل» في بلادهم ...»

وصدرت سنة 1908جريدة الكرمل في حيفا، لتجعل موضوعها فضح الحركة الصهيونية، وكشف أخطار الهجرة وبيع الأراضي. ولكن الحملة التي بدأتها الكرمل، امتدت واتسعت

على صفحات صحف أخرى في فلسطين وخارجها.

وقامت سنة 1910 حركة احتجاج واسعة في فلسطين، بدأت من مدينة الناصرة التي احتجت احتجاجاً جماعياً، وقد سبقت هذه الاحتجاجات تظاهرات شعبية سنة 1908، استنكاراً للسياسة الصهيونية في فلسطين، وتبع ذلك اعتداءات على أملاك اليهود وأموالهم، ولا سيما في شمال فلسطين.

وأثار النواب العرب مسألة الخطر الصهيوني، منذ سنة 1909، في مجلس النواب العثماني. وكانت الصحف العربية تتحدث عن علاقات رجال حزب الاتحاد والترقي مع الصهاينة، وكان رئيس الوزراء ووزير الداخلية من المتهمين بمناصرة الحركة الصهيونية. وقد اضطر النواب العرب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، إلى أن يعلنا بأنهما ضد الحركة الصهيونية سنة 1911.

ولقد انفضح في أوائل عام 1911 أمر الصفقة التي عقدها الياس سرسق مع الصهاينة، لبيع القسم الأكبر من أراضيه في مرج ابن عامر، وهو من أخصب الأراضي في فلسطين، فعمل أبناء فلسطين كل ما يستطيعون لإلغاء الصفقة، ولكنهم فشلوا.

اتخذ كفاح أبناء فلسطين ضد الحركة الصهيونية في هذه المرحلة أشكالاً عدة: من إرسال برقيات الاحتجاج، إلى التظاهرات، إلى الحملات الصحفية، إلى الضغط على رجال الدولة في الأستانة. وكان من نتيجة الإحساس بالخطر الصهيوني أن أنشئ أول حزب في فلسطين، وقد أسس في يافا، وسمي الحزب الوطني.

ولقد أدى هذا كله، وما رافقه من تردد المسؤولين الأتراك، لطمع بعضهم في مساعدات مالية تقدمها الصهيونية، إلى ازدياد الإحساس بالخطر، مما أدى إلى قيام جمعيات لمحاربة الصهيونية، ومواجهة أخطارها. وقد كان الناس يشترطون على مرشحيهم لمجلس النواب العثماني مقاومة الحركة الصهيونية، مقابل التصويت لهم.

كان كفاح عرب فلسطين عربياً منذ البدء، فلقد اشتركوا في المنظمات التي نشأت، في العقدين الأول والثاني من القرن العشرين في دمشق والأستانة وبيروت والقاهرة، وكان منهم أعضاء في حزب العربية الفتاة، وحزب العهد.

وكان من نتيجة موقف عرب فلسطين، أن الحركة الصهيونية لم تستطع أن تتملك حتى سنة 1918 إلا 650 ألف دونم، أي 2.5 بالمئة من الأراضي في فلسطين، خلال سبعين سنة، ومن الجدير بالذكر أن اليهود اشتروا القسم الأكبر من هذه الأرض من ملاكين كبار، ليسوا من فلسطين في الغالب.

بعد الاحتلال البريطاني

دخلت القوات الإنجليزية فلسطين سنة 1917، وفي الثاني من تشرين الثاني، في العام ذاته، أعلن وعد بلفور، ولم يكن عرب فلسطين الذين شايع قسم كبير منهم الثورة العربية سنة 1916، ودعموها، يعرفون أن الإنجليز والفرنسيين قد اتفقوا على اقتسام سورية الكبرى بينهم، وعندما كشفت ثورة أكتوبر سنة 1917 وثائق الحلفاء السرية، لم ينتشر خبرها، ولم يعرف بها قادة الثورة العربية إلا عن طريق الأتراك، وعندما استفسر الشريف حسين عن الموضوع أقنعه الإنجليز بأن الأخبار ليست صحيحة.

وفي العام 1919عقدت الجمعيات الإسلامية المسيحية مؤتمرها الأول في القدس، وأصدر المؤتمر ميثاقاً قومياً ينص على ما يلي: 1- رفض وعد بلفور والهجرة الصهيونية والانتداب الإنجليزي، 2- اعتبار فلسطين جزءاً من سورية، وتسميتها سورية الجنوبية، والمطالبة بوحدة سورية الكبرى، 3- استقلال فلسطين التام، ضمن الوحدة العربية. وكان من جملة ما قرر المؤتمر إرسال وفد الى دمشق للاتصال بالحركة الوطنية هناك، والعمل مع الحكومة العربية لتنفيذ الميثاق، وإرسال وفد آخر إلى مؤتمر الصلح، لتبليغ المؤتمر بالميثاق، وللدفاع عن القضية، وشرح موقف العرب لممثلي الحلفاء.

أما في سورية، انعقد المؤتمر السوري في حزيران من سنة 1919، وكان يضم ممثلين عما يدعى اليوم سورية ولبنان وفلسطين، وقد انتخب مندوبو سورية انتخاباً نيابياً، تحت إشراف الحكومة العربية، ومن قبل المندوبين الثانويين في انتخابات المجلس النيابي العثماني الأخير. أما مندوبو لبنان وفلسطين، فقد انتخبتهم النوادي والمنظمات والعائلات، لأن السلطات الإنجليزية والفرنسية في البلدين لم تكن لتسمح بإجراء انتخابات نيابية فيهما. وضم المؤتمر أكثر من ثمانين مندوباً، كان بينهم أكثر من عشرين من فلسطين. وكان محمد عزة دروزة، سكرتير المؤتمر الفلسطيني الأول، سكرتير المؤتمر السوري الأول. وقد اتخذ المؤتمر قرارات مماثلة لقرارات المؤتمر الفلسطيني، ولكنه أضاف:

الاحتجاج على المادة (22) من ميثاق عصبة الأمم لأنها اعتبرت سورية بلاداً تحتاج الى الانتداب.

الاستعانة بأمريكا التي لا مطامع استعمارية لها، إذا كان لا بد من تطبيق المادة (22) المذكورة، عندما يكون هنالك حاجة لذلك. فإذا كان هنالك ما يحول دون أمريكا وتحمل هذه المسؤولية، فإن المؤتمر يوصي بالاستعانة ببريطانيا ويرفض أن يكون مثل هذا الحق لفرنسا، بسبب مطامعها الاستعمارية في سورية. ولم تكن الاستعانة في نظر المؤتمرين تعني تدخلاً أو وصايةً أو انتقاصاً من الاستقلال.

أن يكون فيصل بن الحسين ملكاً على سورية، وأن تكون «سورية الطبيعية» مملكة نيابية دستورية، تتمتع بنوع من «اللامركزية الواسعة».

أن يقوم حكم ملكي نيابي دستوري في العراق، وأن يرتبط البلدان باتحاد اقتصادي وسياسي.

وواضح أن قرارات المؤتمر كانت لمصلحة بريطانيا، لأن أمريكا لم تكن مهيأة للاضطلاع بمسؤولية انتداب، ولأن التنافس كان بين فرنسا وبريطانيا. وقد طرح بعض أعضاء حزب "العربية الفتاة" اسم أمريكا، لأنهم كانوا قد أصبحوا حينذاك يشكون بنيات الحليفة بريطانيا، ولكن فيصل وآخرين من الفتاة وغيرها كانوا يرون ضرورة السير مع الإنجليز. وقد انتصر هذا الاتجاه، لقد اختار المؤتمر السوري إذن الإنجليز ضد الفرنسيين. ولم يكن الإنجليز بأقل خطراً من الفرنسيين، ولكن الارتباط بين الشريف حسين ومؤيديه والإنجليز، واندفاع الفرنسيين اندفاعاً متهوراً للاستيلاء على لبنان وسورية، وشعور رجال الحركة العربية، بأنهم يحتاجون إلى قوة كبرى تدعمهم، رجح كفة الإنجليز على الفرنسيين، وجعل أيام فيصل في الشام معدودة... هل كان هنالك خيار آخر؟ لقد كان، ولكنه خيار صعب، إنه إعلان رفض الإنجليز والفرنسيين وبدء القتال، وهو ما لم يكن فيصل وأنصاره مستعدين له، مع أن الشيخ صالح العلي في سورية (انظر «طلقة تنوير»، العدد 27)، والثوار في العراق قد لجأوا اليه.

ولم تكن وظيفة المؤتمر مؤقتة، فقد أصبح مؤسسة هامة، إذ إنه تحول إلى مجلس تأسيسي نيابي، اختار لجنة لوضع دستور للبلاد، رئيسها هاشم الاتاسي، وسكرتيرها محمد عزة دروزة، وقد وضعت اللجنة مشروع دستور، وقدمته إلى المؤتمر في الدورة الثالثة. وانعقد المؤتمر مرة ثانية، في الثاني والعشرين من تشرين الثاني سنة 1919، بعد أن وافق الإنجليز على أن يسحبوا قواتهم من سورية لمصلحة الفرنسيين. وقد أثار انسحاب الإنجليز من سورية هياجاً ومظاهرات في دمشق، تعبيراً عن السخط والاستنكار على السياسة الإنجليزية الماكرة. وتوترت المشاعر في البلاد وطالب الناس بالاستعداد لمواجهة الاستعمار الفرنسي. أصبح واضحاً الآن أكثر من أي وقت مضى أن «سورية الطبيعية» سوف تقسم، ولذلك فقد قرر المؤتمر الثاني:

الاستعداد للدفاع عن استقلال سورية الطبيعية ووحدتها، وإعلان الاستقلال، وقيام حكومة وطنية مسؤولة. وأصدر المؤتمر بياناً إلى الشعب، طلب منه فيه الاستعداد للدفاع عن الوطن. وقد تطورت الأمور بعد ذلك، فانسحبت الحاميات الإنجليزية من سورية الحالية، وخطف الإنجليز ياسين الهاشمي قائد الجيش العربي، ونقلوه إلى فلسطين؛ ثم بدأت الثورة المسلحة ضد الفرنسيين في تلكلخ.

وجرت محاولة لعقد مؤتمر فلسطيني ثانٍ، ولكن السلطات حالت دون ذلك (كان المؤتمر سيعقد في يافا، شباط 1920). إلا أن الجماهير كانت تغلي بالحقد والغضب، وانفجر هذا الحقد وهذا الغضب في احتفالات النبي موسى في الرابع من نيسان سنة 1920، حيث تحول الموسم إلى مظاهرات استمرت أربعة أيام ضد الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية، وحدثت اشتباكات بين العرب من جهة، واليهود والبوليس من جهة أخرى، استشهد فيها أربعة عشر عربياً.

أثناء هذه المظاهرات برز زعيم للحركة الوطنية في فلسطين، هو رئيس بلدية القدس الذي عينه اللنبي سنة 1917، موسى كاظم الحسيني، ذلك أنه خرج وخطب بالمتظاهرين عندما مروا بدار البلدية، فما كان من الإنجليز إلا أن أقالوه من منصبه. وبهذه المناسبة، ظهر على مسرح العمل الوطني شاب آخر هرب بعد الاصطدامات إلى دمشق عن طريق شرق الأردن، وحكم عليه غيابياً بالسجن مدة طويلة، هذا الشاب هو أمين الحسيني، القائد المقبل للحركة الوطنية.

كان استيلاء الفرنسيين على دمشق، وسقوط الحكم العربي فيها حدثاً مربكاً ومذهلاً لعرب فلسطين عامة، والعناصر النشيطة من قياداتهم التي شاركت في بناء هذا الحكم والدفاع عنه خاصة، ولكن ما حدث لم يدفع المكافحين إلى الاستسلام، فقد تداعى رجال الحركة الوطنية إلى عقد مؤتمرٍ ثالثٍ في حيفا، في آذار من سنة 1921، وقد عقد المؤتمر في موعده، فأقر ميثاقه السابق، وانتخب لجنة تنفيذية، تتابع تنفيذ القرارات، برئاسة موسى كاظم الحسيني، وقد أضاف المؤتمر تعديلاً أساسياً على ميثاقه، هذا التعديل هو المطالبة بقيام حكومة فلسطينية مستقلة، وهو ما طلبته الحكومة البريطانية بعد المؤتمر الأول. لقد كان سقوط الحكم العربي في دمشق السبب المباشر لهذا التغيير، أما السبب الحقيقي فهو محاولة العناصر القائدة في الحركة الوطنية أن تسوّي بينها وبين بريطانيا، ولكن بريطانيا كانت عازمة ومصممة على تنفيذ ما وعدت به الحركة الصهيونية غير آبهة بالزعامة الهزيلة.

وانفجرت يافا في أوائل أيار من العام عينه، كان الانفجار هذه المرة أعنف من انفجار القدس، وقد دام خمسة عشر يوماً، وامتد إلى مدن أخرى. وكان عدد الشهداء العرب 157، وقد زاد عدد القتلى اليهود على الشهداء العرب. هزت الثورة الحكومة البريطانية، فشكلت لجنة للتحقيق، عرفت باسم لجنة هايكرافت، وهو اسم رئيسها الذي كان يشغل وظيفة قاضي القضاة في فلسطين، لتدرس أسباب الثورة وظروفها وكأن بريطانيا كانت تجهل الأسباب التي أدت إلى هذا الانفجار. وقد اهتدت اللجنة إلى الأسباب التي كانت: نمو المشاعر القومية عند العرب، ومقاومة السياسة الاستعمارية الصهيونية.

وفي يوم الخامس والعشرين من حزيران سنة 1921، عقد المؤتمر الرابع في القدس، فلم يأت بجديد. كل ما فعله هو أنه أيد ما أقرّته المؤتمرات الثلاثة السابقة، وقرر إرسال وفد الى لندن برئاسة موسى كاظم الحسيني. إن قادة الحركة الوطنية الذين قابلوا تشرشل وزير المستعمرات في القاهرة والقدس قبل هذا التاريخ، وسمعوا منه بوضوح أن موافقة الحكومة البريطانية على قيام حكومة مستقلة في فلسطين، يعني تخليها عن التزاماتها ازاء اليهود، وأن هذا مستحيل، أرادوا أن يطرقوا أبواب لندن مباشرة، داعين لقضيتهم. مكث الوفد في لندن قرابة عام يتصل ويقابل ويناقش، واستطاع أن يقنع بعض الأوساط بوجهة النظر العربية.

وقدم الوفد في آب 1921 مذكرة شاملة إلى الحكومة البريطانية اشتملت على العديد من المطالب كان أهمها: -1 إنشاء حكومة وطنية، 2- إلغاء فكرة انشاء وطن قومي اليهود في فلسطين، 3- وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، 4- عدم فصل فلسطين عن أخواتها المقاطعات العربية المجاورة لها.

إلا أن الحكومة البريطانية، المتآمرة مع الصهيونية العالمية، لم تعر التوصية اهتماماً، وأصدرت سنة 1922 الكتاب الأبيض، محاولة فيه تضليل العرب، بإقناعهم أن تصريح بلفور «لا يتضمن أمراً يوجب تخوف سكان فلسطين العرب»، علماً بأن ما جاء في الكتاب الأبيض يفضح المؤامرة الإنجليزية - الصهيونية. فلقد جاء في الكتاب «أن حكومة جلالته تلفت النظر إلى الواقع بأن أحكام تصريح بلفور، لا ترمي إلى تحويل فلسطين برمتها الى وطن قومي لليهود، وإنما إنشاء وطن لهم فيها...». ويضيف الكتاب «وإن الوطن القومي لا يعني فرض الجنسية اليهودية على أهل فلسطين إجمالاً، وكل ما يعنيه أن يصبح لليهود في فلسطين مركزاً يكون موضع اهتمامهم وفخرهم من الوجهتين الدينية والقومي ...». إن الكتاب الأبيض إذاً لا يدل على أي تحسن في موقف الحكومة البريطانية، بل يدل على الإصرار في الاستمرار بتنفيذ المؤامرة.

وخلال وجود الوفد في لندن، استقر رأي الادارة البريطانية في فلسطين، على إنشاء مجلس تشريعي، مؤلف من اثنين وعشرين عضواً، يكون عشرة منهم من أعضاء المجلس الاستشاري الذي ألّفه المندوب السامي سنة 1920، وهؤلاء العشرة موظفون بريطانيون في الإدارة الاستعمارية. ويكون الاثنا عشر الآخرون منتخبين، على النحو التالي: ثمانية من المسلمين، واثنان من كل من المسيحيين واليهود. وقد أرسل المشروع إلى لندن لمباحثة الوفد فيه ولكن الوفد الذي ذهب من أجل الاستقلال، وقيام حكومة فلسطينية رفض المشروع، لأن أكثر من نصف المجلس كان من الإنجليز واليهود، ولأن صلاحيات المجلس كانت استشارية، ولأن المجلس كان محروماً من حق التصويت في الأمور الهامة كالهجرة والميزانية والضرائب والأراضي، وكان المشروع يخول المندوب

السامي حق تعطيل المجلس وحله، وإصدار القوانين التي يريد من دون اعتبار لآرائه وقراراته، ولم يكن غريباً أن يقبل اليهود بمثل هذا المشروع.

حدثت مفاجأة خلال وجود الوفد في لندن، فقد أبرق نفر من «الزعماء» إلى لندن، زاعمين أن الوفد لا يمثل البلاد. من هنا بدأت العائلات والوجاهات والزعامات في فلسطين صراعها من أجل الزعامة والإثراء. ولم يكن هذا الصراع ابن الساعة، فهو وليد الأوضاع شبه العشائرية، والحكم العثماني، ولكنه بدأ يذر قرنيه الآن، منسجماً مع السياسة الإنجليزية الصهيونية.

كانت بعض العائلات والزعامات قد أخذت تكيف نفسها مع الاحتلال طامعةً بالسلطة والمنافع التي يدرها عليها هذا التكيف. وكان بعضها الآخر قد كيف نفسه مع الحركة الوطنية ليجني مكاسب الاستقلال فيما بعد. تزعم بعض أفراد من عائلة النشاشيبي الشركسية الأصل الفريق الأول؛ بينما تزعمت عائلة الحسيني، المنتسبة إلى حفيد النبي العربي الحسين بن علي الفريق الثاني. وقد تنافست العائلتان، وهما من أكبر عائلات القدس، على خدمة الاحتلال العثماني من قبل.

واستطاعت عائلة الحسيني أن تبرز خلال القرن التاسع عشر وأن تحصر منصب الإفتاء ونقابة الأشراف فيها، وعندما دخل الإنجليز فلسطين فكروا في الاستفادة من هذا التنافس فعين الجنرال اللنبي زعيم آل الحسيني «موسى كاظم الحسيني» رئيساً لبلدية القدس بعد الاحتلال البريطاني مباشرة، وحين خطب هذا بالمتظاهرين سنة 1920 أقالته الإدارة البريطانية من منصبه وعينت بدلاً منه زعيم الأسرة المنافسة راغب النشاشيبي، وقد قبل الأخير المنصب، مع أن سلفه طرد منه بسبب وطنيته، وحين خرج موسى كاظم الحسيني من بلدية القدس أصبح زعيماً لفلسطين، واختاره المؤتمر الفلسطيني الثاني لرئاسته ولرئاسة لجنته التنفيذية. وهكذا قاد التنافس الشخصي والمصلحي راغب النشاشيبي إلى بدء عملية معارضة سياسية لخدمة الإنجليز والصهيونية.

وفي الثاني والعشرين من آب من العام 1922، وبعد عودة الوفد من لندن عقد المؤتمر الخامس في نابلس، وبدلاً من أن يعود الوفد خائباً، بسبب الكتاب الأبيض، عاد آملاً مؤملاً، معتقداً بأن دعايته واتصالاته قد فعلت فعلها، ولقد بين أعضاء الوفد للمؤتمر ما قاموا به، والتجاوب الذي وجدوه في بعض الأوساط الإنجليزية، وذكروا أنهم على اقتناع بضرورة مواصلة الكفاح، لأن هذا وحده هو الكفيل بتحقيق الأهداف، وقد اعتبروا أن مقاطعة المشروع المقترح بإنشاء المجلس التشريعي، هو خير رد على السياسة الإنجليزية التي تعمل على تخدير العرب بمشاريع مضللة كمشروع المجلس التشريعي. إن البلاد تريد الاستقلال، بينما يقدم الإنجليز مجلساً تشريعياً لا أهزل ولا أعقم. ورفض هذا المشروع لا يفشل محاولات التقرير الإنجليزية فحسب، بل يفتح للحركة الوطنية العربية

في فلسطين سبل النجاح، وكان من أهم ما قرره المؤتمر:

رفض دستور فلسطين الجديد ومقاطعة انتخابات المجلس التشريعي المقبلة.

تأييد رفض نظام الانتداب باسم فلسطين.

مقاطعة اليهود في الشراء وبيع الأموال غير المنقولة.

الاحتجاج على القرض المنوي عقده باسم فلسطين وعدم الاشتراك بمشروع روتنبرغ (الذي منحت بريطانيا بموجبه أراضي الباقورة وغيرها لبنحاس روتنبرغ لإنشاء محطات توليد كهرباء، وهو المشروع الذي تحول فيما بعد إلى «شركة كهرباء إسرائيل»).

تأليف تاريخ للحركة الوطنية الفلسطينية وتشكيل لجنة لذلك.

وضع عهد لفلسطين واتخاذ يوم وضع العهد يوماً تاريخياً للأمة.

وقطع أعضاء المؤتمر العهد التالي على أنفسهم: «نحن نواب الشعب العربي الفلسطيني في المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس المنعقد في نابلس، نعاهد الله والتاريخ والأمة على أن نواصل السعي في سبيل استقلال بلادنا وتحقيق الوحدة العربية بالذرائع المشروعة القانونية. وأن لا نرضى الوطن القومي اليهودي والهجرة الصهيونية». وبالطبع ليس من الضروري أن نسأل قادة الشعب الفلسطيني كيف يستطيعون تحقيق الاستقلال والوحدة العربية بالذرائع المشروعة القانونية!

أفشلت المقاطعة العربية مشروع المجلس التشريعي، ولكن المعارضة التي نشأت كانت ترى غير هذا الرأي، إنها ترى -زحفاً على السلطة وتحقيقاً لمنافع ومصالح- قبول المجلس التشريعي، والتعاون مع السلطات الإنجليزية والصهاينة، وحين فشل مشروع المجلس، وجد الإنجليز من بين هؤلاء من يرضون أن يصبحوا أعضاء معينين في مجلس تشريعي، يعينه المندوب السامي، أكثريته من الإنجليز والصهاينة وكان راغب النشاشيبي من بين هؤلاء، كما كان من بينهم عبد الفتاح السعدي ممثل عكا في المؤتمر السوري. ويمثل هؤلاء عائلات فلسطين ووجاهاتها، إلا أن موقف جماهير الشعب أجبر عشرة من الاثني عشر عضواً أن يستقيلوا بينما أصر اثنان من القدس، أحدهما راغب النشاشيبي، على الاستمرار، غير أن استقالة عشرة من الأعضاء أحرج الإدارة الاستعمارية فألغت المجلس التشريعي. ولقد كان فشل تجربة المجلس التشريعي انتصاراً جزئياً للحركة الوطنية العربية في فلسطين، زاد من ثقة الجماهير في قدرتها على مجابهة التآمر الاستعماري الصهيوني، وجعل الإنجليز والصهاينة يبحثون عن وسائل أجدى لمجابهة الحركة الوطنية.

كان الصراع بين عائلات فلسطين قد اشتد وامتد، من خلال التنافس على مواقع السلطة

والنفوذ، ففي سنة 1921 توفي الشيخ كامل الحسيني، مفتي القدس، فطرحت مسألة خلافته، وقد هيأ أخوه أمين نفسه للمنصب. وكان قد عاد الى القدس بعد أن عفا عنه المندوب السامي، وألغى الحكم الصادر بحقه.

وعلى الرغم من أن عائلة الحسيني احتكرت منصب الإفتاء أكثر من قرن، وهو عرفٌ شائعٌ كان منتشراً في البلاد العربية، وشمل وظائف ومشيخات وغير ذلك، فقد جرت العادة أن يتم الاختيار من خلال هيئة صغيرة، تضم بعض مشايخ الحرم المتفقهين والأعضاء المسلمين في بلدية القدس، كان رئيس بلدية القدس في هذا الوقت راغب النشاشيبي فأراد أن يوسع نفوذه، ونفوذ المتعاونين معه، ولذلك رشح لمنصب الإفتاء منافساً قوياً للحاج أمين هو الشيخ حسام الدين جار الله، ولما كان النشاشيبي مسيطراً على البلدية استطاع أن يضمن أصوات أعضائها لمرشحه، فنال عدداً من الأصوات أكثر مما نال الحاج أمين، وحين رفعت الأسماء إلى المندوب السامي، اختار الحاج أمين دون غيره، مع أنه لم يكن من بين الثلاثة الموضوعين على لائحة الاختيار بل كان الرابع.

لماذا اختار المندوب السامي الحاج أمين؟ هنالك عدد من التقديرات ربما كان بعضها، أو كانت كلها، هي السبب. وهذه التقديرات هي:

أولاً، كان التنافس التقليدي بين آل الحسيني وآل النشاشيبي ثروة يمكن أن يستغلها الإنجليز في تمزيق الحركة الوطنية وشق الصفوف، ولما كانوا قد عينوا راغب النشاشيبي رئيساً لبلدية القدس، فقد أرادوا أن يخصوا عائلة الحسيني بمنصب الإفتاء، حفظاً للتوازن، وزيادةً لعوامل التنافس، وإشغالاً للعائلتين وأنصارهما.

ثانيا، إعطاء الحاج أمين وظيفة كبيرة مسؤولة، تدفع السلطة نصف راتبها على أمل أن يتكيف مع الوضع الجديد، ويصبح من أحلاف السلطة.

ثالثاً، كان الانفجار الذي حدث في يافا قد أحدث شعوراً من المرارة، وقاد إلى تأزم الموقف إزاء السلطة، وربما ظنت السلطة أن تعيين الشاب الوطني أمين الحسيني في منصب الإفتاء يقود إلى شيء من الانفراج الذي يفسح المجال لطرح المشاريع المشبوهة، مثل مشروع المجلس التشريعي.

مهما كان السبب، على كل حال، فإن تعيين الحاج أمين الحسيني في هذا المنصب زاد من حدة الصراع، وأشعر كل فريق من الفريقين، بأن عليه أن يتخلص من خصمه. ولقد كان تعاون راغب النشاشيبي ومؤيديه مع الاحتلال، يساعدهم على تجميع «الزلم» والأنصار، كما كان في الوقت ذاته يدفع جماهير الحركة الوطنية لمعاداتهم، وتأييد الحاج أمين الحسيني.

وقد عم الصراع في السنة التالية، عندما جرت انتخابات المجلس الإسلامي. لم تكن

تلك الانتخابات محصورة في هيئة صغيرة، كما هي الحال في اختيار المفتي، بل تشمل كل الذكور المسلمين الراشدين في فلسطين. وكان إجراء انتخابات واسعة النطاق كهذه، من أجل انتخاب أربعة أشخاص، للإشراف على المؤسسات الوقفية، سبباً في تمزيق البلاد من أقصاها إلى أقصاها. لقد كشفت المعركة الولاءات، كما أعادت تصنيف الناس، مؤقتاً، من خلال تحالفاتهم. لقد انضم أناس إلى المعارضة كانوا من قبل أعداءها، وانضم أناس من المعارضة إلى جبهة المفتي... الجبهة الوطنية، وكانت تملي مثل هذا التحول في الولاءات مصالح وحزازات وانقسامات تقليدية كالصراع القيسي-اليمني.

وبعد ذلك أصدر المندوب السامي قراراً بتعيين الحاج محمد أمين الحسيني رئيساً للمجلس. ولكن سرعان ما تحول المجلس إلى مؤسسة فاعلة في الكفاح ضد المشروع الصهيوني في فلسطين، إذ بعد أن قام بتنظيم شؤون الاوقاف، وافتتح كلية إسلامية ومدارس في مختلف أنحاء فلسطين، التفت إلى العمل الجديّ للحيلولة دون تسرُّب الأراضي إلى المهاجرين واليهود، فعمد إلى إقراض الكثيرين من أصحاب الأراضي الذين كانوا يعانون ضيقاً مالياً، وقام بشراء مساحات كبيرة من الأراضي وبعض القرى (على سبيل المثال قريتي زيتا ودير عمرو) ثم حوّلها إلى وقف لأهلها، كما اشترى الأرض المشاع في عدة قرى من بينها الطيبة والطيرة وعقيل.

ومن أجل تنظيم أساليب ووسائل مقاومة ضد سمي بـ«خطط اليهودية لشراء الأراضي العربية»، عمد المجلس إلى عقد مؤتمر سنوي من رجال الدين. وقد صدر عن أحد هذه المؤتمرات فتوى دينية بتكفير كل من يبيع أرضه لليهود. وقد أدت نشاطات المجلس في هذا المجال إلى تسديد ضربة قوية لعمليات بيع الأراضي لليهود، حتى أن تقارير سلطات الانتداب التي كانت ترفعها سنوياً إلى اللجنة الدائمة للانتدابات في عصبة الأمم اتهمت صراحة المجلس الإسلامي بأنه يقف حجر عثرة أمام شراء اليهود لأراضٍ جديدة.

عقد المؤتمر السادس في يافا في حزيران 1923، وكانت أهميته تنحصر في أنه أقر سياسة الامتناع عن دفع الضريبة لسلطات الاحتلال. ولكن الظروف لم تكن مؤاتية لتطبيق مثل هذا القرار الثوري. ذلك أن أعداء الحركة الوطنية، أخذوا، يحركهم الإنجليز والصهاينة، يعملون من أجل مزيد من الشقاق، وكان في البلاد تكتلان، هما الحركة الوطنية وحركة المعارضة، فأصبحت هنالك تكتلات معارضة. وأنشأت المعارضة أحزاباً جديدة لتفريق الصفوف مثل الحزب الزراعي والحزب الوطني، ولكن زعامة هذه الأحزاب، كانت زعامة مرتزقة لا توحي بالثقة لأهل فلسطين، ثم أن صلات هذه الزعامات بالإنجليز، واشتغال بعض رجالها بالسمسرة في "بيع الأراضي لليهود"، كشفتهم وعزلتهم، ولكنهم واظبوا على بث دعايتهم.

كانت لهذا الوضع نتائج سيئة على القضية عامة، إذ إن الصراع الشخصي على القيادة،

وتنابذ الزعامات والشخصيات، ونشوء التكتلات المخربة المضللة، عطل فعاليات القيادة الوطنية، وقاد إلى البلبلة والقرف، وفي هذا الجو أخذ دعاة التعاون مع الإنجليز يكشفون عن وجوههم علناً، معتبرين أن تعاملهم مع الإنجليز وحتى الصهاينة، لا يشكل مساساً بوطنيتهم، وقد استغل السماسرة هذه الفرصة الذهبية، فراحوا يعقدون الصفقات من دون أن يخافوا شيئاً.

كانت هذه الفترة ثقيلة على نفوس المخلصين، وحازّة في نفوسهم، فهم يشعرون أن العدو يبتلعهم، ومع هذا يجدون قادتهم يبحثون عن مصالح ومنافع، ويتصارعون على كراسي الزعامة، ومواقع الوجاهة. هنا بدأ البحث عن حل، وقد اتضح منذ البدء اتجاهان، الأول: يرفض القيادات الموجودة، لعجزها وفشلها وانتهازيتها، والثاني: يدعو إلى التعاون والإخلاص والتفاني. كان الاتجاه الثاني، هو الاتجاه الأكثر انتشاراً، اتجاه الناس العاديين الذين لم يدركوا طبيعة قياداتهم، والذين ظنوا بأن المسألة مسألة هداية، وليست مسألة تكوين، وأن الوعظ والضغط قد يفيدان. كان هذا الموضوع موضوع نقاشات واسعة النطاق، اشترك فيها كل مواطن تهمه قضية بلاده. وقد قرر فريق من شباب نابلس أن يثير الموضوع على مستوى عام ومسؤول، فوجه رسائل إلى الصحف والسياسيين والعاملين في الحقل الوطني، تشير إلى «الحالة السيئة التي تعانيها البلاد اليوم»، وتذكر التطاحن «من أجل نفوذ وهمي لا قيمة له، بالنسبة الى قضية البلاد المقدسة».

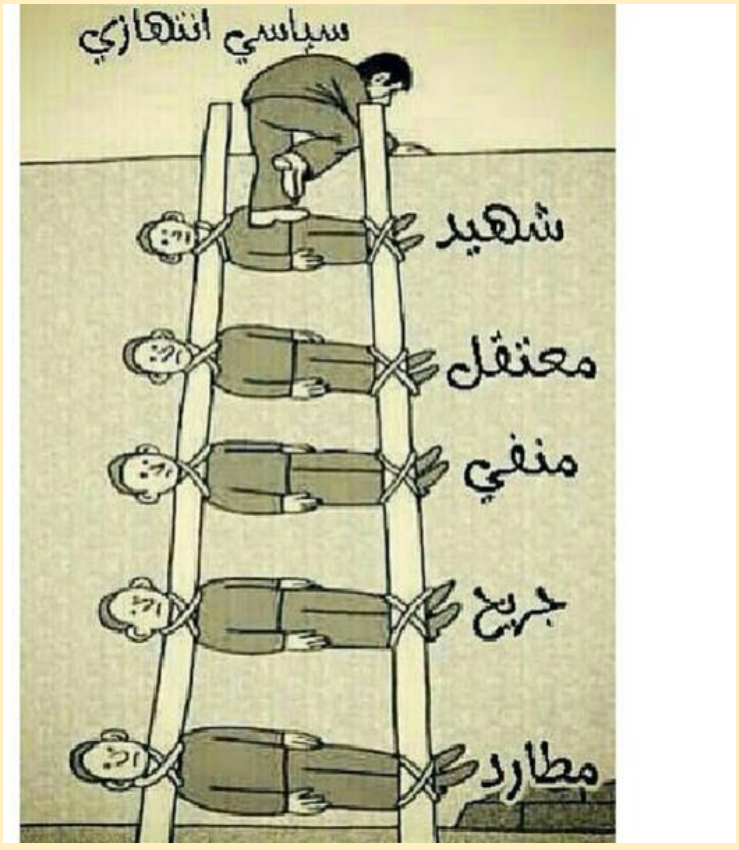

وبعد أن تطرح الرسالة تحول قضية المجلس الإسلامي «عن كونها قضية إسلامية داخلية» تسأل الاشخاص المعنيين عما إذا كانوا يوافقون «على أن يدعى لعقد مؤتمر وطني في أقرب وقت، ليبحث في أنجع دواء يخلصنا من حالتنا الحاضرة، ويأتمر على طريقة حازمة تعود بالبلاد إلى سيرتها الأولى من اتحاد ووفاق».

وكان طرح الاتجاه الثاني مثل: «لا نتهم أحد بالخيانة، ولكل طريقة في خدمته، ووجهة نظر في جهاده، ومن السهل إزالة الخلاف بقليل من التضحية»! ومثل هذا الطرح يدلنا على عقم هذا الاتجاه، الذي لا يرفع تهمة الخيانة عن

الخونة فحسب، بل يعتبر أن خيانتهم اجتهاد، وأن الفرق بينهم وبين المخلصين هو خلاف على النظريات فقط ولذلك فالقليل من التضحية والرغبة الحقيقية في التفاهم، وفي تقريب النظريات بعضها من بعض، كافٍ لأن يجعل القادة يتفقون، ويعملوا لمصلحة الوطن. فإذا قصد بهذا الكلام طبقة «الزعامات والوجاهات» في فلسطين، وليس أفراداً منها فقط، فهو صحيح، إن مصلحتها واحدة، وإن اختلاف فئات منها قابل للتسوية بقليل من التضحية، ولكن هذا لا ينفي أن يكون بعض أفراد من هذه الطبقة خونة بالمعنى العادي للخيانة، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا التفكير هو تفكير الطبقة شبه الإقطاعية شبه البرجوازية في فلسطين، وتفكير حواشيها وأتباعها. وقد عملت هي على ترويج هذا التفكير في صفوف الجماهير حتى لا تؤدي تناقضاتها ونزعاتها إلى اكتشاف طبيعتها، وبالتالي عزلتها وانهيارها.

حين بلغت الأمور هذا الحد من التدهور، تحرك الإنجليز قاصدين اختبار مدى استعداد قادة الحركة الوطنية للتفاهم، أبلغ هؤلاء، عن طريق بولس شحادة صاحب جريدة "مرآة الشرق"، بعض قادة الحركة الوطنية بأنهم على استعداد للتباحث معهم في سياسة الانتداب بفلسطين، وفي إمكانيات إعادة النظر فيها وتعديلها. ولم يخيب الوطنيون أمل ميلز مساعد السكرتير العام لحكومة الانتداب في فلسطين. لقد تجمعوا واختاروا نفراً منهم لمقابلة المذكور، لم يكن هؤلاء من أعوان الإنجليز، ولا كانوا من جبهة راغب النشاشيبي، بل كانوا من جبهة المفتي وكاظم الحسيني، ومن أبرز قادة الحركة الوطنية، واجتمع هؤلاء مع ميلز أربع مرات خلال أسبوع وكان ذلك في تموز سنة 1926.

وكانت مقترحات فريق الوطنيين مع ميلز «متسامحة معتدلة لأن الحالة الروحية، وفتور الحركة الوطنية كانت تملي الرغبة في الحصول على شيء ما»، كما يقول محمد عزة دروزة، ولم تطالب المذكرة الذي قدمها الفريق بجلاء أو استقلال، ولا تطرح موضوع إيقاف الهجرة مباشرة، بل كانت تحاول إيجاد صيغة مقبولة لبقاء الانتداب واشتراك أهل البلاد بالحكم!، وحرصت بشكل غريب على عدم المساس بتعهدات بريطانيا الدولية بشأن فلسطين، أليس وعد بلفور أول وأخطر هذه التعهدات؟!

المهم أن مذكرة هذا الفريق لا ترفض التزامات بريطانيا الدولية بشأن فلسطين، ولكنها ترغب فقط في ألا تتعارض مع حقوق العرب، وأصر الفريق على تسجيل عدم استشارة العرب عند اتخاذ وعد بلفور، ولكن تسجيل عدم استشارتهم لا يعني رفض التفاهم على هذه الالتزامات. وصيغة الاشتراك في الحكم التي وافق عليها المفاوضون هزيلة جداً، لا تتجاوز الانضواء تحت لواء الانتداب والعمل معه، ولم يعترفوا لبريطانيا بحقها في التصرف بفلسطين وفق التزاماتها الدولية فقط، بل تلزم جناحاً من الحركة الوطنية بالموافقة على هذه السياسة، التي رفضها الشعب، وقاومها الوطنيون منذ بدء الاحتلال.

إن هذه الوثيقة تدل على مدى استعداد قيادات الحركة الوطنية للمساومة، فلنسجل على جناح من الحركة الوطنية إسقاطها شعار المطالبة بإلغاء وعد بلفور والانتداب، وقبولها بالمشاركة في ظل الانتداب.

ومع هذا، وعلى الرغم من استسلام المفاوضين أمام سلطة الاحتلال، فإن سلطة الاحتلال لم تتنازل قيد شعرة وأشعرتهم بأنهم لا يمثلون البلاد، وأن المندوب السامي «يجب أن يقتنع بأن الاقتراحات المقدمة تعبر عن آراء هيئة عامة من أهالي البلاد». لقد نجح المندوب السامي، وممثلو سلطة الاحتلال، في جر بعض قادة الحركة الوطنية الى المساومة، ثم كشفوهم، ثم أخبروهم بأنهم لا يمثلون البلاد ...! فماذا كانت النتيجة؟ طبع قادة الحركة الوطنية المذكرات، وشفعوها بدعوة إلى الأمة لتستعيد حيويتها، وتنسي أحقادها، ولتجتمع في مؤتمر سابع، يكون الهيئة التمثيلية التي تتولى أمر مفاوضة الإنجليز.

كانت الصراعات قد ازدادت واحتدت بين قيادة الحركة الوطنية من جهة، والمعارضة بقيادة راغب النشاشيبي من جهة أخرى، وكان هذا الصراع يقود إلى انقسامات في أوساط الجماهير، ويحرك حزازات طائفية وأحقاداً عشائرية، وكان الإحساس بضرورة انعقاد مؤتمر أكثر حدةً منه في أي وقت مضى، وكان الرأي العام ينظر بعين الغضب إلى هذه الخلافات، ولا يرى فيها إلا الطابع الشخصي، وإن كان في أكثريته يدرك خيانة المعارضة السافرة، وحين وجه فريق المتفاوضين مع المستر ميلز نداءه إلى الأمة، بدأت الاتصالات من أجل عقد المؤتمر السابع؛ وأخذ الحريصون على وحدة الجبهة الوطنية يتوسطون بين الفئتين المتناحرتين، وكان فريق المتفاوضين مع المستر ميلز من المتوسطين وقد عقد المؤتمر في تموز سنة 1928، بعد جهود كبيرة بذلت في الاتصالات والتسويات والمساومات. ودعيت كل الفئات، الوطنيون وأعداؤهم، المخلصون والخونة، مقاومو بيع الأراضي والسماسرة ...، وانطلق دعاة التعاون مع الإنجليز في العمل لتنفيذ مخططاتهم، وكادوا ينجحون لولا أن بعض الوطنيين لاحظوا ما يدبر، فطالبوا بأن يقرر المؤتمر تأييد قرارات المؤتمرات السابقة.

وهكذا فشلت محاولة إقرار قيام نوع من الحكم الوطني في ظل الانتداب والتزاماته. ولكن المؤتمر الذي ولد بعد مخاضٍ عسير لم يستطع إلا أن يكون ميتاً، ذلك أن التناقضات التي كانت تحكمه، حالت دون انتخاب لجنة تنفيذية فعالة، ولما كانت كل فئة تسعى لأن تتمثل في اللجنة التنفيذية، فقد رؤي أن يكون عدد أعضاء اللجنة التنفيذية كبيراً، على أن يكون من كل قضاء اثنان أحدهما يمثل قيادة الحركة الوطنية، والآخر يمثل خصومها، على أن يضاف إلى هؤلاء عدد من ممثلي المسيحيين، جعل هذا أعضاء اللجنة التنفيذية ثمانية وأربعين من مختلف الأشكال والألوان: وطنيون، عملاء، سماسرة، انتهازيون، وهكذا أصبحت اللجنة التنفيذية ميدان صراع، تبرز فيه كل التناقضات الخاصة بالزعامات

والوجاهات. لقد انتصرت المعارضة في هذا المؤتمر، لأنها أدخلت إليه كل أعداء الحركة الوطنية، ولأنها ضمنت عدداً من المقاعد في اللجنة التنفيذية، مساوياً لمقاعد قيادة الحركة الوطنية، ولا يتناسب مع القوة الشعبية التي يتمتع بها دعاة التعاون مع الإنجليز والعملاء والسماسرة. حكم هذا على اللجنة التنفيذية وأجهزتها بالشلل، وهذا ما كان يريده الإنجليز والصهاينة والسماسرة والعملاء.

إن ما حدث كان تعبيراً حاداً وعنيفاً، لا عن خيانة بعض فئات من طبقة الأفندية شبه الإقطاعيين شبه البرجوازيين، بل عن فشل طبقة كاملة وعن عجزها وانهيارها. ولكن عدة عوامل حجبت هذا الانهيار، أهمها نفوذ هذه الطبقة المادي والمعنوي، وسيطرتها على جماهير الفلاحين والعمال، وضعف الوعي الطبقي عند الفلاحين والعمال، واتجاه أنظارهم نحو الانتداب والغزو الصهيوني، وكان السقوط الفعلي لهذه الطبقة مستحيلاً، في وقت كانت فيه تزداد ثروةً ونفوذاً، على الرغم من إفلاسها السياسي، وكانت التنظيمات العمالية والفلاحية الواعية غائبة عن المسرح.

كانت الجماهير ساخطة ناقمة على تنابذ القيادة السياسية وتهافتها. ولم تكن سياسة المساومة والمهادنة لترضيها ولكن الجماهير غير المنظمة، التي كانت ما تزال تعتبر اللجنة التنفيذية للمؤتمر السابع قيادتها، لم تكن تعرف ماذا تفعل بالضبط، وإن كان واضحاً لديها أن المقاومة المسلحة للاحتلال البريطاني، وللحركة الصهيونية هي الوسيلة الوحيدة الناجعة.

ولقد كان صيف آب من سنة 1929 منذراً بالخطر، ذلك أن الصهاينة كانوا يطمعون بالاستيلاء على حائط البراق، فأثاروا حقوقهم التاريخية فيه، محلياً ودولياً، وحاولوا شراء أملاك الوقف المجاورة له بأثمان مغرية، وفي سنة 1928، قاموا باحتفالات غير عادية هناك، فتجمعوا من كل أنحاء فلسطين ونفخوا في الصور. قادت هذه الحادثة العرب إلى التنبه والحذر، فأنشأوا «جمعية حراسة المسجد الأقصى»، بمبادرة رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الحاج أمين الحسيني، الذي استغل الحادثة لتحريك الرأي العام، وإثارة روح النقمة والاحتجاج والتهيؤ للدفاع عن المقدسات، وقد انتشرت هذه الجمعية في جميع أنحاء فلسطين، وعقدت مؤتمراً واسعاً ضم الكثير من رجال فلسطين، وحضره عددٌ من خارجها.

حل صيف 1929، واليهود ينتظرون مناسبة «عيد الغفران» للقيام باحتفالات أكبر من احتفالات السنة السابقة، وصدف أن عقدت الصهيونية العالمية مؤتمرها في زوريخ في هذه الأثناء، فأثار خطباء المؤتمر قضية فلسطين وحائط البراق إثارة أشعلت نيران الحقد عند العرب، وحركت عواطف اليهود، فلما كان «عيد الغفران» في منتصف آب، بدأ الصهاينة استفزازهم بمظاهرة كبيرة، وكان الرد العربي مظاهرة أكبر في الأسبوع التالي.

وفي الثالث والعشرين من الشهر عينه بدأت الاشتباكات بين العرب والصهاينة. لقد انفجرت الجماهير العربية في المدن خاصة، فاندفعت في القدس أولاً ثم في يافا والخليل وصفد تسوي حساباتها مع الصهاينة، لم تكن تنتظر أوامر قيادة، أو تخطط لعمل جذري وحاسم، ومع هذا فقد أعطت الصهاينة درساً قاسياً لن ينسوه.

كان هذا الانفجار الشعبي أوسع وأخطر من الانفجارين الأولين، انفجار القدس وانفجار يافا المذكورين سابقاً، وقد دللا لا على رفض الجماهير الشعبية لسياسة الاحتلال والحركة الصهيونية فحسب، بل على رفضها سياسة المؤتمرات والاجتماعات والاحتجاجات التي انتهجتها اللجنة التنفيذية واحتقارها لها، وكان ممكناً وسهلاً أن يتحول هذا الانفجار الشعبي إلى ثورة عارمة، لو وجدت القيادة التي تستطيع توجيه الانفجار وتعميمه في فلسطين من أقصاها إلى أقصاها، وتحديد أهداف واضحة له: الاتجاه نحو بث ذعر لا مثيل له في أوساط المهاجرين اليهود عن طريق الهجمات الماحقة، كما حدث في الخليل، وإعلان بدء الكفاح ضد الاحتلال حتى النصر. ولكن اللجنة التنفيذية، بوضعها حينذاك، وبما فيها من عملاء وسماسرة، وبالعقلية المساومة المهاودة المتخلفة الذاتية التي تتحكم بها، لم تكن في مستوى الأحداث. ولذلك فقد تبعثر الانفجار، ولم تقدم اللجنة التنفيذية إلا الاحتجاج، لقد حكمت هذه الحادثة على اللجنة التنفيذية بالإعدام، وأقنعت الجماهير بضرورة البحث عن طريق أخرى، طريق الكفاح المسلح.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 83 ـــدد
01 أيلول 2022

خصائص الحركة القومية العربية: عن خواء الطريق الاقتصادوي للوحدة ودور الإسلام الوحدوي

ياسين الحافظ

مجلة الثقافة 1 أيلول / سبتمبر 1958

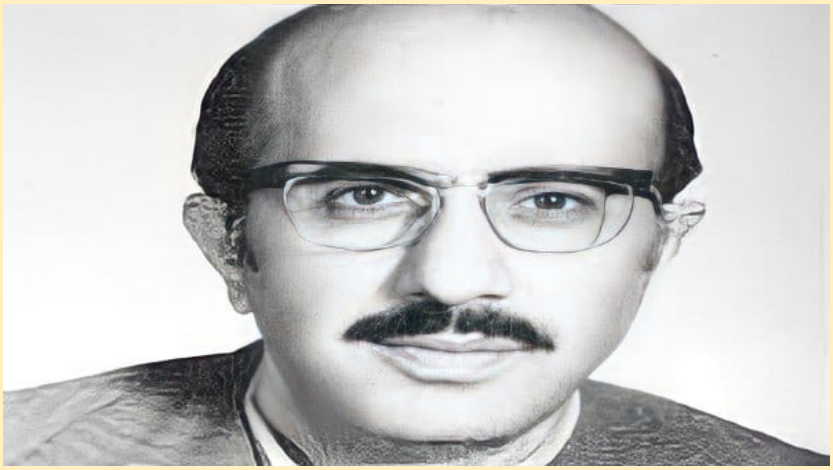

(نعيد نشر هذه المادة القيمة، والقصيرة، للمفكر ياسين الحافظ، أولاً، ضمن مشروع تعريف الأجيال الصاعدة بالتراث القومي العربي الحديث، وثانياً، لما تحتويه من خلاصات مكثفة عن الفروق الجوهرية بين السياقين الوحدويين الأوروبي والعربي. وقد أضفنا عنواناً فرعياً هو «عن خواء الطريق الاقتصادي للوحدة ودور الإسلام الوحدوي» للعنوان الأصلي الذي وضعه الحافظ لمقالته، وهو «خصائص الحركة القومية العربية»، لصلة ذلك بالمضمون المتميز للمقالة التي وضعها كاتب قومي يساري مثل ياسين الحافظ).

إن جوهر البحث العلمي هو «التحليل الملموس لوضع ملموس» لذا كانت ملاحظة خصائص المكان وانسياب الزمان من أولى بديهيات البحث في العلوم الاجتماعية، ولكي نتجنب التجريد النظري والتعميم الميكانيكي عند بحث قضايا القومية العربية، ينبغي أن ندرس تطور شعبنا العربي كما يجري في الواقع الملموس.

إن الإنسانية تسير في خط تطوري صاعد، هذا أمر لا شك فيه، إلا أن مجاري تطور الأمم ليست متماثلة، ولا تمر عبر مجرى واحد محدد، ولكي تتضح القضية في ذهن القارئ، سأعرض بسرعة وإيجاز تطور بعض الأمم الأوروبية، ثم أعرض تطور الأمة العربية، كي نستطيع استخلاص بعض خصائص الحركة القومية العربية.

أولاً:

1. في العهد الإقطاعي كان كلّ بلد مقسماً إلى إقطاعات أو إمارات تكاد تكون مغلقة، تكفي نفسها بنفسها من مختلف النواحي، وبصورة خاصة من الناحية الاقتصادية، كانت تلك الأمم تعيش في مرحلة «جنينية».

2. جاء تطور الاقتصاد الرأسمالي ليحطم هذه الحواجز الاقطاعية بإنشائه سوقاً وطنية واحدة واقتصاداً قومياً يحل محل المراكز الاقتصادية المبعثرة في النظام الإقطاعي، حقاً كانت «السوق هي المدرسة التي تعلمت منها البرجوازية القومية».

3. كانت السوق الواحدة حاجة البرجوازيين، لذا حملت الطبقة البرجوازية لواء الحركة القومية في أوروبا، فنشأت القومية بين أحضانها وطبعت بطابعها.

4. كان العامل الاقتصادي، وبتعبير أدق التطور الاقتصادي الرأسمالي هو محرك القوميات الأوروبية، لأنه كان العامل الأساسي في ظهور الدول القومية الموحدة، وبالتالي هو الذي أنضج الشعور الغامض الغض بالقومية، لأن عامليّ اللغة والأرض كانا متوفرين في العهد الإقطاعي، إلا أن العزلة التي فرضتها الحواجز الإقطاعية على أجزاء الأمة جعل الشعور بالقومية وضرورة الوحدة هزيلاً، وما أن هدم التطور الاقتصادي الحواجز والقيود الإقطاعية حتى انصهرت الأمة وتبلور التكوين النفسي لكل شعب.

5. كانت جماهير العمال والفلاحين والصناع الحرفيين لا تعي بوضوح كافٍ مصالحها الطبقية الخاصة، وكان الصراع الرئيسي يدور بين البرجوازية والإقطاعية، فاستطاعت البرجوازية آنذاك ـ نظراً لطابع نضالها التقدمي ـ أن تعبئ جماهير العمال والفلاحين والحرفيين، كان طابع تلك القوميات برجوازياً محضاً، لأن التطور التاريخي كان يجري آنذاك باتجاه فوز الرأسمالية وتثبيت دعائمها ويؤهل بالتالي الطبقة البرجوازية للزعامة.

6. استيقظ الشعور القومي في أوروبا في معمعان نضال طبقي بين البرجوازية والإقطاعية، وقد ظهر ذلك بوضوح تام في الثورة البرجوازية الإنجليزية في القرن السابع عشر

والثورة البرجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر والثورة البرجوازية الديمقراطية الألمانية في القرن التاسع عشر.

7. كان هذا التطور الاقتصادي القائم على الملكية والرأسمالية، والذي يحركه عامل الربح والاستثمار، دافعاً للتوسع والعدوان على الأمم الأخرى، فطُبعت تلك القوميات بالطابع الشوفيني، ثم اتخذت هذه الأمم طابعاً استعمارياً على النطاق العالمي عندما دفع التطور بالرأسمالية إلى مرحلتها الاحتكارية.

ثانياً:
أما سير التطور التاريخي الملموس للشعب العربي فقد تميز بالخصائص التالية:

1. إن الشعب العربي لم يعرف الإقطاعية في شكلها الأوروبي الكلاسيكي. لقد لعب الإسلام دوراً حاسماً في تحطيم الشكل القبلي للجماعات العربية، وأتم عملية التفاعل والصهر في قسم كبير من البلدان التي وصل إليها الفتح العربي آنذاك، ففي ظل الإسلام تكونت للشعب العربي ثقافةٌ مشتركةٌ وتبلور تكوينُه النفسي، الإسلام كتراث حضارة، كثقافة مشتركة، كتكوين نفسي مشترك، هو الرحم الذي احتوى أمتنا العربية وحماها من التفتت النهائي والتجزئة الكاملة وهو الذي حال دون تحول الفوارق الكمية الدرجية التي تكونت خلال الفجوات التاريخية التي عاش فيها الشعب العربي مجزأً، إلى فروق نوعية كيفية تجعل التجزئة أمراً طبيعياً ومنطقياً، هذا هو الأثر الإيجابي للإسلام على شعبنا العربي.

2. على أثر التوسع الاستعماري في العالم، وخاصة على أثر الحرب العالمية الاولى، انتقلت المسألة القومية من أوروبا إلى الصعيد العالمي، وأصبح النضال القومي في أساسه نضالاً تحررياً للجماهير الشعبية، وخاصة لجماهير الفلاحين في آسيا وإفريقيا ضد الدول الاستعمارية الغربية.

3. إن الحركة القومية العربية قد استيقظت على محاولات الإفناء التركية أولاً، ثم على اضطهاد السيطرة الاستعمارية الأجنبية، وبالتالي فإن القومية العربية لم تستيقظ في غمار نضال طبقي داخلي.

4. لم تتطور الرأسمالية العربية ـ حتى الآن ـ ذلك التطور الواسع الذي يجعل وجود السوق المشتركة عاملا أساسياً في هدم الحدود بين الأقاليم العربية، لقد سبق الوعي القومي

العربي التطور الاقتصادي بمراحل طويلة، حتى نكاد لا نتبين صلة سببية بينهما في الحالة العربية، بل يمكن القول إن كل رأسمالية عربية، في كل قطر، تتطور بصورة منفردة ومعزولة، وهكذا نتبين أن ليس بين البلاد العربية اقتصاد مشترك، وبالتالي لن يتاح له أن يلعب ذلك الدور الذي لعبه التطور الرأسمالي في أوروبا، هنا يبرز دور الفكر القومي الثوري الذي يلحم هذه الثغرة، إذ يلعب النضال المشترك ضد الاستعمار دور توحيد وصهر لأجزاء شعبنا بتقوية الشعور بالمصير المشترك وتصفية الشعور بالعزلة والتجزئة.

5. إن الجماهير الشعبية العربية من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين قد نما وعيها الطبقي والقومي، ولم تعد كتلاً غامضة التفكير مبهمة الاتجاه تسير خلف البرجوازية العربية، ولم تعد البرجوازية العربية قائدةً للشعب العربي، بل ينهض بعبء النضال الجماهير الشعبية المعادية للاستعمار. فالبرجوازية الوطنية العربية لم تحتضن وحدها دعوة الوحدة بل احتضنتها جميع الطبقات والفئات الشعبية المعادية للاستعمار.

6. إن نهوض الحركة القومية العربية يجري في مناخ دولي تقدمي، في عصر نهوض الاشتراكية وانتصارها وتفكك النظام الاستعماري وانهياره.

تلك هي الظروف التي تعيشها الحركة القومية العربية، والعقبات التي تناضلها والفئات التي تحتضنها، هذا هو مجرى تطورها التاريخي، الذي طبعها بسمات معينة وخلق لها خصائص مميزة، هذه الخصائص إذن ليست «مطلقة» أو «بيولوجية»، كما أنها ليست «سلبية» أو «قدراً محبباً» لأنها ليست هبة من الطبيعة الخيرة ولا نعمة من التاريخ الغابر المجيد، وإنما هي ثمرة النضال التاريخي الذي يخوضه شعبنا العربي، وإن اعتبار هذه الخصائص غير مطلقة وغير خالدة لا ينفي كونها موجودة وأساسية وجوهرية، وهذه الخصائص هي التالية:

1. قوميتنا العربية حركة أممية وإنسانية، فهي قد عانت مظالم الاستعمار وقاست ويلاته، ولذا فهي تعطف على حركات التحرر في كل أنحاء العالم وتدعمها، وهي جزء أساسي من حركة النضال الإنسانية ضد الاستعمار، فهي تقف اليوم في الخط الأول من جبهة الشعوب، وتجابه الاستعمار العالمي بمجموعه، في كل لحظة وفي كل مكان، وهي تحمل أعظم المثل العليا الإنسانية، الحرية والتقدم والعدالة والسلام لكل الشعوب.

2. وقوميتنا العربية حركة شعبية، فقد حمل لواءها واحتضنها جميع الطبقات والفئات والجماهير الشعبية المعادية للاستعمار، ليست البرجوازية الوطنية العربية قائدة الحركة القومية العربية، بل هي إحدى الفئات التي احتضنتها، المثقفون الثوريون والعمال والفلاحون والبرجوازيون الصغار... هؤلاء هم حملة عبء النضال القومي العربي.

3. وقوميتنا العربية حركة ديمقراطية، لأنها لم تجابه الاستعمار وحده، بل جميع القوى الضالعة معه التي ربطت بحكم طبيعتها الطبقية مصيرها النهائي به، لذا كان سحق الإقطاعية كعقلية وكأسلوب إنتاج من أولى مهام الحركة القومية العربية.

وقوميتنا العربية حركة تقدمية، وتقدميتها حصيلة السمات الثلاث الأولى معاً، مضافاً إليها كون نهوضنا يجري في عصر انتصار الاشتراكية في العالم، تحرر قوميتنا من الطابع البرجوازي ومن القيادة البرجوازية وتحالفها الفعلي مع المعسكر الاشتراكي في النضال العام المشترك ضد الاستعمار سيفتح أمام تطورها في الداخل آفاقاً واسعة باتجاه الاشتراكية.

الصفحة الثقافية: عن الشاعر الفارس... ناجي علوش/2

مريم نصرالله

قبيل انبلاج الفجر

قبيل الشهقة الأولى

امتطى العاصفة وانطلق

يقصد السفر الطويل

وأنى له أن يتوه؟

وهو المحارب أبداً

والعاشق أبداً

والفارس الصعب منذ البداية وحتى النهاية.

هو ذا دأب الشاعر الحق، يمضي من سفر إلى سفر على جناح الشعر، لا يكل ولا يمل، ويترك لنا أن نقتفي الأثر، فالطريق وعر، وهل من صخرة نتكئ عليها في درب الرحلة؟ نقول نحن، وخياله لا يفتأ يجيب.

أين ابتدأ رحلته؟ وأين بلغ قصده؟ وفي أي المحطات توقف؟ تجول هذه السطور في ثنايا تجربة ناجي علوش شاعراً، وتحط الرحال بين محطتين.

ناجي علوش بين شاعرين

لا يمكن تلخيص تجربة ناجي علوش الشعرية، أو أي شاعر على الإطلاق، بقصيدة واحدة، إذ لكل مرحلة شعرها الذي يتسم بطابع معين وبروح محددة وبنفس واحد في الأعم الأغلب. وإذا قلنا إن مرحلة التجلي التي أعلنت عن نفسها في مجموعته الخامسة «عن الزهر والنار» كانت مرحلة تبلور ذاته الشعرية على الصعيد الأدبي بأبهى صورة، فذلك لما حوته تلك القصائد من زخم إنساني وشعري عميق كان أشبه بحصيلة متراكمة لمجمل تجربته شاعراً وثائراً وإنساناً، تلك التجربة التي بدأت مع السياب وانتهت مع المتنبي، كان فيها الشاعر مخلصاً أشد الإخلاص لجهة إبراز معالمها ومتفرداً لجهة التأثر بها، فكان هو نفسه، لا أي أحد آخر، لذلك فمن غير الممكن تناول شخصية علوش الشعرية من دون الإشارة وبكثير من التفصيل إلى أثرين مهمين تركهما في حقل الكتابة النقدية، أولهما «مقدمة ديوان بدر شاكر السياب»، وثانيهما «أبو الطيب المتنبي... دراسة في شعره وهويته».

مقدمة ديوان بدر شاكر السياب

صدر ديوان بدر شاكر السياب عن دار العودة في بيروت (لدينا نسخة عام 1971). وقدم له ناجي علوش بالمقدمة المعروفة التي باتت مرجعاً أساسياً لكل الدارسين والباحثين في مجال الشعر والنقد والأدب، يميزها الشمولية والاختلاف عن أي نوع من المقدمات الشعرية الأخرى، إذ تغوص في حياة السياب إنساناً، وتلقي الضوء على عصره بنظرة الباحث الناقد، وتحكي الكثير عن ملامح شعره بلغة بسيطة وسلسة تتيح للقارئ رسم فكرة دقيقة ومفصلة عما هو بصدد قراءته، ومن نافل القول إن علوش الأول –إن لم يكن الأوحد- الذي تناول حياة هذا الشاعر وتجربته الخاصة والمؤثرة بهذه الطريقة، فاعتمد أسلوباً بحثياً رصيناً وموضوعية استثنائية في تحليل قصيدة السياب على مستوى الشكل والمضمون، وتناول مراحل حياته وشعره الأربع: الرومانسية، والواقعية، والتموزية، والذاتية، وناقش أبعاد تجربته الشعرية الغنية وتولى فيما بعد التقديم لكل مجموعة من أفعاله الشعرية على حدة، واضعاً كلاً منها ضمن سياقها الموضوعي والذاتي لبدر شاكر السياب.

ولا نبالـغ إن قلنـا إن الاهتـداء بمقدمـة علـوش هـو خطـوة أساسـية لـكل مـن يرغـب بقـراءة السياب والتعرف على مضمون رحلته الشعرية وفهم قصائده الزاخرة بالمعاني والرموز والأساطير، وهي على المقلب الآخر، دليلٌ لسبر أغوار قلم قل نظيره في الأوساط الثقافية لشاعر فذٍ ومتمكن اسمه ناجي علوش، سيخط التاريخ اسمه بحروف من ذهب لا يبلى ولا يخفت بريقه بل يزداد ألقاً وبهاء بمرور الزمن.

تؤدي تلك المقدمة دوراً مفصلياً في رحلة ناجي علوش الأدبية، فتكتمل معها الصورة الكبرى لناجي علوش الإنسان والشاعر والناقد في آن معاً، ولعل قرب الشاعر من السياب وملازمته في المستشفى طيلة فترة محنته حتى وفاته عام 1964، كان له بالغ الأثر في إثراء سطورها ومنحها أساساً صلباً ترتكز عليه.

فهل انتهى تأثيرها مع انتهاء صفحاتها الثمانين؟ لا يبدو ذلك، على العكس، إذ أصبحت تجربة السياب، كما سنرى، زاداً لأروع قصائده ومعيناً ينهل من جماليته الفنية والإنسانية بعضاً من أبرز أشعاره وأكثرها كمالاً على كافة المستويات.

أبو الطيب المتنبي... دراسة في هويته وشعره

صدر كتاب «أبو الطيب المتنبي... دراسة في هويته وشعره» عن دار الرواد في بيروت عام 1993، مهدىً إلى روح رفيقة دربه وشريكة نضاله الراحلة سميرة عسل، وينحو ناجي علوش في هذه الدراسة منحى آخر تماماً، اختلف فيه عن كل من تناول سيرة أبي الطيب المتنبي عبر العصور، فلئن عرفه الجميع شاعراً فذاً، فلدى علوش منظور آخر سيجعلنا نرى هذه الشخصية التاريخية المتميزة من وجهة نظر أخرى، فهو الشاعر والثائر والفارس، عربي الهوى واللسان، عزيز النفس وطالب الحق أبداً. وللحق، فإن أياً من دارسي حياة المتنبي لم يتناول، بحسب معرفتنا، شخصية الشاعر بهذا العمق والتفصيل، ولم يقدِّم أحدٌ من قبل على إلقاء الضوء على الجانب القومي والإنساني في حياة المتنبي كما أقدم علوش في هذه الدراسة، وهنا يبدو البحث الشاق والجهد العظيم الذي بذله في إبداع هذا العمل النقدي المتفرد مستعيناً بأمهات المصادر التي تناولت بعض أو مجمل حياة المتنبي حتى يومنا هذا.

يقع الكتاب في 480 صفحة، ويقسم إلى قسمين: الأول يتناول دراسة في هوية المتنبي، ودراسة في شعره ونقده، والثاني يتناول مختارات من شعره بناء على أساس الدراسة المقدمة في القسم الأول.

أما لماذا المتنبي؟ فلأنه لم يقدَّم للقارئ كما يجب، كما أن هنالك من حاول تشويه شخصيته أو شعره لسبب أو لآخر، ولأنه باختصار، يمثل وجدان الأمة في رفض المذلة والهوان، ولأن شعره عبّر عن روح المواجهة مع دولة العجم والخدم، لنكون أمام نص

شعري يزداد أهمية وراهنية وغنى مع مرور الأيام. وينقسم شعر المتنبي، بحسب هذا الكتاب، إلى ثلاثة أقسام: الشعر الرسمي، وشعر المناسبات العابرة، والشعر الذاتي الذي تتجلى فيه كل خصائص شعره وتبرز معالم إبداعه.

وكما هي الحال مع مقدمة السياب التي أسست لمرحلة التحول في تجربة ناجي علوش الشعرية، فإن دراسة المتنبي شكلت الأساس الذي استندت إليه مرحلة التجلي، وصولاً إلى قصيدة «محاورة مع أبي الطيب المتنبي»، النص الشعري الذي بلغ حد الكمال، إذ جمع سيرة المتنبي وذاتية السياب في تجربة إنسانية وشعرية، هي في الأساس، تجربة ناجي علوش، الشاعر الثائر والفارس العاشق والمقاتل والمطارد والإنسان الحق.

اكتشاف الذات – السياب

في الكويت عام 1958، تفجر نبع من شاعرية مرهفة مالت أكثر نحو الذاتية، تبلورت في هذه القصيدة للمرة الأولى بوضوح نزعة ناجي علوش للتحرر من إسار القصيدة التقليدية الخطابية، كان ذلك في قصيدة «الفرار»، ومطلعها:

أتعرفين كيف يحيا شاعر يموت

حين يحس في الشرايين يد الردى

تمتد كل لحظتين باحتراس يا ندى

لتخنق الخلود فيه ثم تلقي بالرمام

هنا تأتى للشاعر أن يناجي نفسه ومحبوبته بإحساس مفرط يعيد إلى الذهن رومانسية بدر شاكر السياب ومرحلة العودة إلى الذات التي طبعت آخر أشعاره على وجه التحديد، بيد أن هذه النزعة للتحرر كانت الشرارة لتبلور شخصية شعرية فريدة تتأثر بغيرها، من دون أن تفقد خصائصها وتغرق في التقليد، وهكذا جاءت مرحلة التحول التي برزت في مجموعة «هدية صغيرة» وتألقت أكثر فأكثر في مجموعة «جسور الأشواق»، لتبلغ مداها في مجموعة «عن الزهر والنار»، ولعل قصائد مختلفة مثل «ماذا أقول لك» و«الجذور الظمآنة» في مجموعة «النوافذ التي تفتحها القنابل» شهدت تبلور هذه الشخصية وتطورها على صعيد الأداء الشكلي والضمني للقصيدة، الغربة وبئر زيت، وداع الأحبة والرفاق، والموت والمرض والبحر والمطر، صور ورموز يوظفها علوش في سطور قصائده فتأتي تدفقاً عفوياً للمشاعر الإنسانية بقالب نصي مختلف، يبدو أن شاعرنا سيكون أميل إليه في مراحله القادمة.

تبلور الذات - المتنبي

لا يخفى إعجاب ناجي علوش بالمتنبي على القارئ، فهو إذ يسرد في ثنايا شعره تجربة ذاتية خاصة، لا يسعنا إلا استحضار صورة أبي الطيب بين السطور، فكما المتنبي شاعر وعاشق وثائر، في نظر علوش، فإن قصائد مثل «الدمعات التي خبأتها العيون»، «المهرة»، «أغني وجراحي نازفة»، «عن الدم الذي يزهر في كل المواسم»، و«محاورة مع أبي الطيب المتنبي» ستقدم لنا نموذجاً إبداعياً خالصاً لاندماج التجربتين في نصوص متميزة على صعيد التعبير والتصوير وتطويع الأوزان العروضية بما يخلق متسعاً لدفقة هائلة من المشاعر والمعاني والاستعراض الفني بأبهى صورة. من هو ناجي علوش؟ أو من هو المتنبي؟ هما سؤالان مختلفان، لكن الجواب واحد يتردد صداه في كل قصيدة، إنه الشاعر إذ يقول:

وأنا شاعر
علمتني الحرائق
أن في النار شعراً، وفي الموت شعراً
وفي الحرب شعراً، وفي الحب شعراً
وأن العواصف كامنة في السكون

وهو الفارس المغوار إذ يقول:

قلت للمهرة: ها نحن التقينا من جديد
وبصدري شغف المهر بجولات كبار
فتعالي نوقظ البيد ونزهو في الغبار
ملأت رأسي أحلام انتصار

وهو الثائر المطارد إذ يقول:

وأنا المطارد...
ذاك كافور يلاحقني إلى قلب

الجزيرة،
يطلق الفرسان في أثري إلى
الوادي، ويغري كل أوباش
القبائل باصطيادي

تضيق الصفحات عندما نحاول الإلمام بتجربة شعرية لشخصية متفردة كناجي علوش، شكلت حالة خاصة في ميدان الأدب والشعر، فنقف عاجزين، هل سنتناول الشاعر أم الناقد أم المقاتل أم الإنسان؟ يلح علينا السؤال، والأمانة في أعناقنا، نسأل الله التوفيق في سدادها كما تستحق.

(يمكن العودة إلى الحلقة الأولى من هذه المادة في العدد 82 من طلقة تنوير).

قصيدة العدد: رسالة إلى شاعرٍ سجين

محمد عفيفي مطر

ماذا يقول بلبلٌ حزينْ
ماذا يغني في ضمير الليل شاعرٌ سجينْ
زوّارُه:
حكايةُ الدموع حين طهرتْ ملامحَ السنين
وصوتُ نخلةٍ بشَاطئِ الفُرات تشربُ الضياءَ والمطرْ
وصورةُ الكروم وهى تحملُ الثَّمرْ
وصورةُ المساء وهو يحمل الظلالَ والقمر
وصورةُ النساءَ حينما يرقدن رقدة المخاض
ماذا يقول حينما يرى على الجدار قصة البشر؟!
أنا هنا...

وجهي بلون الطمي والغلالْ
أعيش في الريف وأعشق الحديث عن مفاتن الجبال
وأعشق الشعر وأعشق الحديث عن صلابة الرجال
والنيل صَبَّ في دمي تمرُّدَ الخيال
* * *
من ليلتين جاءني لحنٌ مجنَّحٌ وثيرْ صافٍ
يدور هائماً في المقطع الأخير
تَمزَّقتْ حروفُه عن وجهكَ المنير أطْرقْتَ يا «بدر»... ضحكتَ...
قلتَ لي: أنا هنا.. وجهي بلون التمر حينما يسيل
فيه سكَّرُ العصير
أنا هنا...
يشدُّني إلى الجدار حارسٌ ضريرْ
فلا أرى الشمس، ولا أرى النخيل
وهي تسكب الظلال في مسارب الأصيلْ
ولا أرى الحُبالى في مفارق الطرق
ولا أرى طيش الطيور في الأفق...
شيءٌ وحيدٌ يقطع السكون
كيْ أظل ساهراً إلى الصباح
صوتُ النخيل وهي تلعن الضياءَ والمطر
تقول: حتى الآن لم تأتِ مواعيد الثمر؟!
حتى مخاض الشمس لن يجفَّ جرحُك الحزين
لكنني - يا بلبلي السجين - أعشق في عينيك طيبة الجبال
أعشق زندك المفتول من صلابة الرجال
* * *

على النجوم فارسٌ معفَّرُ الإزار
مرعى جواده الأقدارُ والشرارْ
أتى، وسار في بلادنا، ودار
ودقَّ دقَّةً على الجدار وابتعدْ
وقال: موعدي - يا أيها السجين -
بعد غد لنحفرَ القبورْ
وندفنَ الآلهةَ الصغار
* * *

"رسالة إلى شاعر سجين"، كتبها الشاعر المصري الراحل محمد عفيفي مطر لبدر شاكر السياب عند اعتقاله عام 1959. وتحكي هذه القصيدة الكثير عن الشاعر إذ يناجي شاعراً، والثائر إذ ينسج الأمل غداً -لا ريب- قادماً.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 83 ـــدد
01 أيلول 2022

رسـم العـدد: في ذكـرى رحيـل جـمال عبـد النـاصر 28/09/1970

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي